

مساءلات نقدية في جدل العلاقة بين الغرب والعلمانية¹

Critical arguments in the debate between the West and secularism

أ. د. عبد العزيز فضيل بوالشعير²

جامعة الملك خالد أبها - المملكة العربية السعودية

abouchair@kku.edu.sa

تاريخ الوصول: 2021/01/21 القبول : 2021/04/24 النشر علي الخط: 2021/06/15

Received: 21/01/2021 Accepted : 24/04/2021 Published online : 15/06/2021

ملخص:

يدور موضوع البحث في نطاق الدراسات الفلسفية التي تبحث في الغرب عموماً وجدل العلاقة بينه وبين العلمانية على وجه أخص، بهدف الكشف عن طبيعة تأثير العلمانية في الغرب فكرياً وحضارة ومؤسسة، وتأثيرها هي أيضاً بالسياقات التاريخية والاجتماعية والفكرية للمجتمع الغربي. ولهذا جاء البحث نتيجة الحفر في أصول ظاهرة الغرب العلماني وتشكله في التاريخ الحديث، وانتهاجه للمنظومة العلمانية في الرؤية والمنهج والممارسة، من خلال آليات العلمنة التي اعتمدها مؤسسات السلطة والمعرفة في أوروبا. وما أفرزته الرؤية العلمانية من مقولات التمركز حول الذات الغربية والاعتداد بها، وفق أطر ومسوغات معرفية؛ فلسفية، علمية وفنية هيأت للمجتمع الغربي الانتقال من تأليه الطبيعة إلى تأليه الإنسان، وما نجم عن هذه الرؤية وآليات تطبيقها في الواقع من أزمات معرفية حادة. وقد اعتمدنا في مقارنتنا للموضوع المناهج الاستقرائية والتحليلية والنقدية، هدفنا من خلالها إلى فهم وتفسير ظاهرة الغرب العلماني وتتبع تطورات ومراحل انتقاله، وتقييم مآلاته في الفكر والحياة وانعكاسات أزماته على الغرب والعالم.

الكلمات المفتاحية : الغرب، العلمانية، العلمنة، الوعي الغربي، المركزية الغربية، أوروبا.

Abstract

The topic of this research is about the scope of philosophical studies that investigate the West in general and the controversy between it and secularism in particular. This is in order to reveal the nature of the influence of secularism in the West in thought, civilization and institution, and its influence also on the historical, social and intellectual contexts of Western society. The research was the result of examining the origins of the phenomenon of the secular West and its formation in modern history, and its approach to the secular system in vision, methodology and practice, through the secularization mechanisms adopted by the institutions of power and knowledge in Europe. In addition to what resulted from the secular vision; the statements of centering around the Western self and being proud of it, according to cognitive frameworks and justifications; Philosophical, scientific and artistic that prepared the Western society for the transition from the deification of nature to the deification of man. And what emerged from this vision, moreover, the mechanisms of their application in reality and the resulting severe cognitive crises.

We employed the inductive, analytical and critical approaches. We aimed through it to understand and explain the phenomenon of the secular West, in addition to track its developments and stages of transmission, and assesses its effects in thought and life and the consequences of its crises on the West and the world.

key words : The West, Secularism, Secularizing, Western Consciousness , Western Centralization, Europe.

¹ - هذا البحث تم دعمه من خلال البرنامج البحثي العام بعمادة البحث العلمي بجامعة الملك خالد المملكة العربية السعودية بالرقم 133 /41 G.P.R

² المؤلف المرسل: عبد العزيز فضيل بوالشعير الإيميل: abouchair@kku.edu.sa

أولا: مقدّمة

شكّل الغرب ظاهرة حضارية فكرية، وواقعية، متميزا ومخصوصا في النشأة والتكوّن والتطوّر والمآل، دفع المشتغلين بالدرس الفلسفي المعاصر إلى تطبيق مناهج ومقاربات لدراسته باستخدام أدوات تحليلية وتفسيرية، بقصد الفهم والتفسير أولا، والحفر في أصوله التاريخية وخلفياته الفكرية والفلسفية ثانيا، والبحث في المعطى العلماني الذي ميّز المجتمع الغربي وصاحبه منذ بداية العصر الحديث ثالثا. شكّل في النهاية جدلية تأثير وتأثر بين الغرب والعلمانية، باعتماده لآليات العلمنة التي انتهجتها مؤسسات السلطة والمعرفة، بما اعتقد أصحابها أنها حلٌّ لمشكلات واقعهم وتجاوز لمآزقهم التي أفرزتها المنظومة الدينية الكنسية، وما تبوّه كرؤية للعالم ومنهج للفهم والبناء. فقد عرف النسق المعرفي الغربي تحاذبات فكرية وسياسية بين الداعين إلى تبني الأطروحة العلمانية الشاملة بكل مقولاتها وأفكارها وممارساتها، والانخراط تدريجيا في عمليات العلمنة الكلية للفرد والمجتمع والدولة، وبين الأطروحة التي تنجذب نحو العلمنة الجزئية للرؤية والفكر والواقع، والإبقاء على الخيط الديني الناظم للحياة الغربية، بما تشكّله هذه المقاربة من توسط واعتدال في الجمع بين الدين والعلمانية.

ومن زاوية ثانية، اعتُبر تشكّل الغرب الحديث في إطار المنظومة العلمانية حتمية تاريخية انتهت به إلى امتلاك عناصر القوة والتميّز والهيمنة، استنادا إلى ما حملته الرؤية العلمانية من مبادئ وأفكار ساهمت بشكل واضح بنظر الغربيين في نشوء الحضارة الغربية وامتداد تأثيراتها في العالم. ما جعل البعض يعتقد بأنّ ما حدث للغرب نشأة وتطورا وحضارة وقوة، لم يكن ليحدث لو لم يتم تبني الأطروحة العلمانية، التي عملت مؤسسات المجتمع الغربي على علمنة الفكر والحياة والوجدان والواقع الغربي. في مقابل الطرح الذي يرى بأنّ كتابات الفلاسفة الغربيين عن أفول الغرب وسقوطه وموته وانتحاره إنما دليل واضح ومؤشر قوي على الخطأ المنهجي والمعرفي الذي وقع فيه الغرب عندما توجه نحو العلمانية كفلسفة ومنهج في الحياة، وراحوا يعدّدون جملة الانحرافات الفكرية والأزمات الواقعية التي عاشها المجتمع الغربي باعتبارها نتائج حتمية لخياره الخاطئ منذ البداية. والأمر بهذا الشكل يعتبر مدخلا أساسيا من مداخل البحث والنظر في أطروحة نقد العلمانية والسعي إلى الحديث عما بعد العلمانية في الغرب، بالعرض والمناقشة لأطروحات بديلة لها، لتساعد الإنسان الغربي على تجاوز مآزقه وأزماته التي ظل يتخبط فيها منذ بداية القرن العشرين إلى اليوم. انطلقنا في القراءة النقدية لعلمانية الغرب وما آلت إليه من جملة الكتابات التي ظهرت في الفترة الأخيرة، والتي عززتها كتابات الفلاسفة والمفكرين في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، حيث نبّهت بوضوح إلى عجز المنظومة العلمانية خصوصا المتطرّفة منها؛ ذات البعد العنصري المتمركز على ذاته، بأطره المعرفية ومقولاته الفلسفية وممارساته العنيفة في الواقع. والدعوة إلى عودة المقدّس الديني، بما هو مخرج وحل وتجاوز لهذا المآزق الغربي المعرّب عن وصول العلمانية إلى نهايتها أو اقتربها من حتفها، والدخول في مرحلة جديدة تتعايش فيها الرؤية الكونية للدين مع الرؤية العلمانية للكون، والذي سُمّي حينها بمصطلح ما بعد العلمانية-post secularisme، بدلا من الاستمرار في الحديث عن مجتمع ما بعد الدين الذي ساد العالم الغربي طيلة القرون الأربعة الماضية.

ثانيا: إشكالية البحث وتساؤلاته: من هنا تأتي إشكالية البحث الرئيسية كمساءلة نقدية لجدل العلاقة بين الغرب والعلمانية، من خلال الإجابة على السؤال الآتي: كيف نفهم العلاقة الجدلية ومساراتها وتطوراتها التاريخية بين الغرب والعلمانية؟

للإجابة على هذه الإشكالية يقتضي منا طرح التساؤلات الفرعية التالية:

- ما هو مفهوم الغرب؟ وكيف تشكّل في التاريخ الحديث والمعاصر؟
- ما هي السياقات التاريخية والمعرفية التي حدّدت موقف الغرب من الدين؟
- كيف سوّغ الغرب انتقاله من تأليه الطبيعة إلى تأليه الإنسان؟
- كيف أسس الغرب فلسفيا لمقولات التمرکز على الذات؟
- كيف وقعت أزمة الغرب المسيحي ولماذا اتّجه نحو العلمنة؟
- لماذا اعتبرت العلمانية حتمية تاريخية لا مناص منها؟
- ما هي أهم الانتقادات التي واجهتها العلمانية الغربية؟ وما هي آفاقها المستقبلية؟

ثالثا: أهمية البحث : تكمن أهمية البحث في كونه يعالج إشكالية فلسفية راهنة تتعلّق بالتطورات الكبيرة التي شهدتها الغرب المعاصر ما يجعل البحث في تاريخه ضرورة معرفية، نعمل فيها على فهم وتحليل ونقد المنظومة العلمانية وتتبع تطوراتها في التاريخ الحديث والمعاصر. بما يُسهم في فهم ظاهرة العلمانية في العالم العربي والوقوف على العناصر المكوّنة لمنظومتها والتطورات والتغيّرات المصاحبة لها في الوعي الغربي وتحولاته .

رابعا: أهداف البحث : يروم هذا البحث تحقيق الأهداف الآتية:

- محاولة لفهم الغرب ومكوّناته المعرفية وتطورات التاريخ الحديثة والمعاصرة في علاقته بالعلمانية والسعي إلى الكشف عن وجه العلاقة بينهما.
- الإحاطة بالجذور التاريخية للغرب المسيحي وتتبع تحولاته نحو العلمنة ومآلات ذلك في الواقع، من خلال الإجابة على سؤال الدين في الوعي الغرب.
- الوقوف على الرؤية المعرفية والقيم الحضارية التي صاحبت الوعي الغربي في انتقاله من تأليه الطبيعة إلى تأليه الإنسان.
- الكشف عن المقولات المركزية ذات المنحى العرقي التي تشكّل في إطارها الغرب العلماني، وانعكاسات ذلك كله على العالم.
- عرض أزمة الغرب المسيحي واتجاهه نحو العلمنة، بتحليل ونقد مآلات الأزمة، وبطلان القول بحتمية العلمانية.
- الإسهام في تأسيس الدرس الفلسفي النقدي حول علمانية الغرب وما بعدها بما هي موضوعا للدراسة والبحث في الفكر الإسلامي المعاصر.

خامسا : منهج البحث : نعتد في بحثنا هذا جملة من المناهج بحسب الموضوعات المعالجة، والأهداف المتوخاة

من البحث، منها:

- المنهج الاستقرائي: نقوم فيه باستقراء النصوص والآراء الفلسفية حول موضوع الغرب والعلمانية.
- المنهج التحليلي: نحلل فيه بعض النصوص والأقوال التي تناولت جذر العلاقة بينهما..
- المنهج النقدي: نعمل بواسطته على قراءة نقدية لبعض الطروحات الفلسفية المؤسسة للرؤية العلمانية، والمتحيزة للغرب ومنظومته الفكرية، والداعية لمقولاته المركزية ذات المنحى العرقي والحضاري، وانعكاساتها السلبية على الغرب وبقية العالم .

1- الغرب: سؤال المفهوم والتشكل**مسألة في مفهوم الغرب**

السؤال المركزي الذي يطرح نفسه أثناء حديثنا عن مفهوم الغرب هو الآتي: ما ذا نعني بالغرب أو بفكرة الغرب؟ كيف يمكن تحديده؟ هل يقتصر مفهوم الغرب على المعطى الجغرافيا الذي ينحصر في أوربا فقط أم يتعداه إلى أمريكا؟ خاصة إذا علمنا بأن الغرب يجمع بين الثقافة الأوروبية ونسقتها القيمي، والثقافة الأمريكية ونسقتها القيمي وتطبيقاتهما في الواقع وامتداداتهما في التاريخ الحديث والمعاصر، فوجود القواسم المشتركة بينهما إلى حد كبير يبرر قول البعض بأن الغرب واحد في ثقافته وقيمه . كما يتساءل آخرون: هل يقصد بالغرب الحضارة الغربية وثقافتها من دون التمييز بينهما؟ وهل يمكن اعتبارهما وحدة عميقة رغم تقسيماتها الجغرافية؟ ما هي القيم والقواسم المشتركة التي جعلت من الغرب وحدة وعالم قائم بذاته؟ يقول رضوان زيادة¹: "فالأوروبيون والأمريكيون يمتلكون قيما أساسية مشتركة، لكنهم لا يشتركون في فهم واحد لهذه القيم المشتركة".¹ معنى ذلك أن الوعي الأوروبي بالقيم وتطبيقاتها يختلف إلى حد كبير عن الوعي الأمريكي بها، ما جعل البعض يفصل بين أوروبا وأمريكا على أساس أن الحضارة الغربية بدت منقسمة كمال يقول نبال فرغسون الذي تساءل في كتابه: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ قائلا: "كيف لنا أن نفسر حقيقة أن الحضارة الغربية بدت منقسمة إلى قسمين: في الشرق أوروبا ملحدة، وفي الغرب أميركا التي تخشى الله، وكيف لنا أن نفسر استمرار المسيحية في أميركا في وقت انحدارها في أوروبا؟"²

يجيب رضوان زيادة عن هذه التساؤلات التي طرحها فرغسون بقوله: "بالنسبة إلى هنتنغتون يتحدد الغرب بعدد من الصفات استمدتها من مسيحيتها، تعددته، فردانيته، وحكم القانون، فهي الأمور التي مكنت الغرب من اختراع الحداثة والتوسع في أرجاء العالم، ومن أن يصبح محل حسد المجتمعات الأخرى . بيد أن الفرنسي فيليب نيمو (Philippe Nemo) يتحدث عما يسميه "قسمات الحضارة الغربية" التي هي "قسمات ثقافية" يحددها في دولة القانون، الديمقراطية، الحريات الفكرية، العقلانية النقدية، العلم، الاقتصاد الحر على حرمة الملكية الخاصة، وهذه القيم والمؤسسات، التي تمخضت عبر مسار تاريخها الطويل، هي ثمرة

¹ رضوان زيادة وكيفين جيه أوتول: صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1431هـ/2010م، ص 48.

² نبال فرغسون: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ ترجمة: سعيد محمد الحسنية، ط3، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت-

لبنان، 2019م، ص 413.

بناء ثقافي معقد شاركت في تكوينه أحداث ضخمة أساسية.¹ يعرضها فيليب نيمو في خمس نقاط كبرى في كتابه: ماذا يعني الغرب؟ (Qu'est ce que l'Occident?)

1- اختراع الإغريق للمدينة الديمقراطية وللحرية وللقانون وللعلم وللمدرسة.

2- اختراع الرومان للقانون والملكية الخاصة وللشخص وللإنسانية.

3- الثورة الأخلاقية والأخروية "La Révolution éthique et eschatologique" (الكتابة) نسبة إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد (والتي أسست "التاريخ" بقلبها مفهوم الزمن من التصور الدوري إلى التصور الخطي).

4- الثورة البابوية La Révolution papale في مطلع الألف الثاني للميلاد والتي اختارت استعمال العقل الإنساني بصورتيه العلم اليوناني والقانون الروماني ورسمت استراتيجية جديدة لتحسين مصير العالم، من أجل إنجاز الحقيقة الأولى المركبة بين "أثينا" و"روما" و"Rome" و"القدس" Jérusalem كما يقول فيليب نيمو. Nemo.

5- الثورة الديمقراطية الليبرالية La promotion de la démocratie liberale، كالثورات الديمقراطية الكبرى التي وقعت في هولندا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا.² فبالنظر إلى القسّمات الثقافية التي أشار إليها نيمو والصفات المسيحية والتعددية والفردانية والقانون التي ذكرها هنتنغتون يتحدّد الغرب كتجربة تاريخية فريدة في تكوينها وتطورها وتأثيرها على العالم، تحمل قيمًا خاصة تجلّت في مفاهيم ثقافية وقانونية وحضارية كان لها الأثر الأكبر في التطوّر الذي عاشته أوروبا والولايات المتحدة.³

ومع ذلك، يظل الالتباس المفاهيمي والتاريخي الذي يحيط بمصطلح الغرب قائما على مستويات : الوعي، الدراسات والأبحاث الأكاديمية، السياسية، الإعلامية والاستراتيجية، خاصة عندما يتم التعامل معه بوصفه مفهوما ماهويًا قاريًا. بمعنى؛ هل يتم فهم الغرب في سياقه التاريخي الذي يمتد إلى العصر الحديث على الأقل بداية من القرن السادس عشر فقط، أم يتم فهمه في ضوء اكتمال تشكّله وبداية هيمنته وتأثيره الكبير على العالم المعاصر؟ وبالتالي، يرتبط تشكيّله وتحديدده بتشكّل الدولة الأمريكية مع نهاية القرن الثامن عشر؛ أيّ يتم التركيز على تحديد مفهوم الغرب وفهمه بناء على العامل الثقافي المشترك بالدرجة الأولى، الذي شكّل قاسما مشتركا بين أوروبا وأمريكا في حدود معينة. ومن ثمة ينبغي استبعاد العوامل الأخرى الجغرافية والإثنية والدينية واللغوية في عملية التحديد الماهوي للغرب. أشار إلى ذلك رضوان زيادة في كتابه: صراع القيم (بقوله "فليس الغرب مقولة جغرافية ولا إثنية ولا دينية ولا لغوية، بل هو بالتحديد مقولة ثقافية، والأمر ذاته بالنسبة إلى الشرق، بيد أنّ الغرب ذاته اليوم يعيد التفكير في ماهويّته، فهل الغرب كلّ موحد، وهل ثباته البنيوي عصيّ على التغيّر والانقسام؟"⁴ أم أنّ هناك

¹ رضوان زيادة وكيفين جيه أوتول: صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1431هـ/2010م، ص51.

² Philippe Nemo: Qu'est-ce que l'Occident? Presses Universitaires de France, 2004, p8.

³ رضوان زيادة وكيفين جيه أوتول: صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1431هـ/2010م، ص51، 52.

⁴ رضوان زيادة وكيفين جيه أوتول: صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1431هـ/2010م، ص50.

مؤشرات توحى بانقسام الغرب إلى عالمين: العالم الأوروبي والعالم الأمريكي؟ وما هي المعايير المعتمدة في وضع حدود للانقسام الواقع وما انعكاساته عليهما؟ وما حقيقته في الواقع المعاش؟

الإجابة على هذه التساؤلات قد تكون متضمنة في إجابة ريتشارد كوك في كتابه: "انتحار الغرب"، وهو بصدد الإجابة عن سؤال ماذا نعني بالغرب؟ قائلا: "نعني به البلدان التي استوطنها الأوروبيون، والسكان فيها يشكلون أكثرية واضحة من شعب من سلالة أوروبية، والثقافات والأفكار مشتقة إلى حد كبير من أوروبية، وماذا يعني هذا اليوم؟ باختصار، أمريكا الشمالية، وأوروبا، وأستراليا (...). وعلى الرغم من تحفظاتنا بشأن الاسم، فإننا نستخدم "الغرب" و"الحضارة الغربية" لأن ذلك اللفظ كان طوال أكثر من مئة عام هو اللفظ المقبول عموما للثقافة وللواقع السياسي لأمريكا وأوروبا، ولا يستطيع أي مؤرخ أو عالم اجتماع أن ينازع في الأصول الأوروبية لمعظم الأمريكيين أو التشابه في الثقافة ونظرة الأوروبيين والأمريكيين، ودعنا نكرر مع ذلك -أنّ" الغرب " بالنسبة إلينا يشمل أوروبا الشرقية، ومناطق أوروبا الغربية مثل أيرلندا، إسبانيا، والبرتغال التي غالبا ما يغفلها المعلقون "الغربيون" ويشمل بلادا مثل كندا، وأستراليا، ونيوزلندا التي تضم بشكل رئيس أحفاد المستوطنين الأوروبيين والتي ما زالت الثقافة الأوروبية سائدة فيه".¹ والنتيجة هي أنّ "فكرة الغرب ليست أكثر، ولا أقل، من فكرة أمريكا ممتزجة مع فكرة أوروبية، وفكرة أوروبية هي فكرة مجتمع متمدّن، وسلمي، مزدهر مكوّن من أمم متنوّعة موحّدة بجغرافية مشتركة وبأفكار مشتركة (...). وفكرة الغرب هي القضية المشتركة لأمريكا وأوروبا لمساعدة إحداها الأخرى وللدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية"² فالملاحظ في هذا النص أنّ صاحبه يؤكد على مركزية أوروبا جنسا وثقافة في تحديد ماهية الغرب وحقيقته، ويعتبر أنّ الغرب رغم تنوع أممه فإنه يشكّل كيانا موحدا بجغرافية موحدة وثقافة وأفكار مشتركة، ويبنى ريتشارد كوك أطروحته على أساس القيم الثقافية التي قام عليها الغرب ومنها؛ أنه مجتمع متمدّن، وسلمي، ومزدهر، يدافع عن الحرية والكرامة الإنسانية. وبالتالي فالتنوّع والاختلاف الجغرافي والتعدّد الإثني الذي عرفته أوروبا وأمريكا وأستراليا لم يمنع من تشكيل ماهية الغرب وامتزاجه فكرة وواقعا طالما أنّ الأسس الذي قام عليه موحّدة ومشاركة.

. تشكّل الغرب

ما يستنتج من كلام كوك ونحن بصدد الحديث عن كيفية تشكّل الغرب هو أنه يصعب علينا الفصل بين أوروبا وأمريكا للأسباب التي ذكرها، ولعلّ السبب القوي الذي يركّز عليه كوك هو القواسم المشتركة بين أمريكا وأوروبا، وهي برأيه قواسم وأسس فكرية متطابقة دينية ونفسية وعلمية واقتصادية وسياسية وفلسفية، والتي يحددها في الآتي: "المسيحية، والتفأول، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردانية"³ وهذه العناصر الست تشكّل فكرة أوروبية وفكرة أمريكا كونهما تشتركان في شيء هو أقوى كذلك من مجمّع معقّد من الأفكار المتشابهة "فكرة أوروبية وفكرة أمريكا كلتاهما تتضمن التزاما جماعيا عاطفيا نحو مجتمع واسع عريض، ونحو جذور جغرافية وتاريخية، ونحو مثل أعلى متطور، والأفكار والمثل العليا مشتركة، والتاريخ والشعوب تتطابق، والجغرافيات فقط هي

1 ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، العبيكان، المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1430هـ/2009م، ص 17، 18.

2 المرجع نفسه، ص 40.

3 المرجع نفسه، ص 42.

المختلفة، وإنّ فكرة الغرب تشتمل على كل الأفكار، وعلى كل المثل العليا، وعلى كل التاريخ، وعلى القارتين كليهما¹ والناظر في كلام كوك يدرك بوضوح تركيزه على العناصر الآتية:

- تشابك الأفكار.
- الالتزام العاطفي والجماعي.
- الجذور الجغرافية والتاريخية.
- المثل الأعلى المتطور.
- الأفكار والمثل العليا المشتركة.
- التطابق الشعبي والتاريخي.

وهذا التحديد جاء في إطار إزالة الغموض الذي كان سائدا في تعريف الغرب مع مطلع القرن العشرين فـ" في مطلع القرن العشرين كان التعريف الجغرافي الدقيق" للغرب "غامضا، ويشمل أحيانا كل أوروبا، وأحيانا يتحدّد بأمريكا الشمالية، والإمبراطورية البريطانية، وفرنسا) عادة (وكان انخيار الغرب لأزروولد إشبغغر غامضا دائما بشأن البلدان التي كانت مدرجة للانخيار، وكان يشير في مواقع إلى " حضارة أوروبية أمريكية "وفي مواقع أخرى إلى " غرب -أوروبي ""² بمعنى أنّ هناك تذبذبا لدى المفكرين والدارسين لتطور الغرب وانخياره، فعندما يكتب البعض عن انخيار الغرب وسقوطه، هل يقصد بذلك سقوط حضارة أوروبا بالدرجة الأولى؟ أم أنّ السقوط يشمل كلا من أوروبا وأمريكا على السواء؟

ولكي تتوضّح فكرة الوصل أو الفصل بين أوروبا وأمريكا يجدر بنا الوقوف على السياقات المعرفية والثقافية والنفسية والاجتماعية التي أنتجت الغرب وشكلته بصورته الحالية؛ وهي صورة خليط غير قابل للتعريف من العقلانية، والفاعلية، والثقة، وطلب المعرفة، والمسؤولية الشخصية، وتحسين الذات، وتحسين العالم، والإحساس بالفردية الأخلاقية. وهي كلّها عوامل اشترك فيها الأوروبيون ومن انخدر منهم، وهم ممثلون اليوم بشعوب أمريكا، وأوروبا وأستراليا بتعبير ريتشارد كوك.³ ولو جئنا مثلا إلى تحديد المصادر الأولى الدينية والفلسفية والعلمية التي انطلق منها الغرب في بناء ذاته وحداثته فإننا نقف على جانب كبير من الاشتراك والانسجام في هذه المصادر، كالفلسفة الإغريقية والوسيطية المسيحية والفلسفة الحديثة والمعاصرة، والديانتين اليهودية والمسيحية، وبعض الأساطير المؤسسة للوعي الغربي، وفي منظومة العلوم والرؤيا العلمانية للعالم التي حدّدت مسارات الغرب وتعقله للعالم وتحكّمت في ممارساته السلوكية. وهي مصادر كفيلة بأن تخلّق منظومة معرفية وثقافية منسجمة ومتوافقة إلى حد كبير بين أوروبا وأمريكا، على الأقل في مستوى الأسئلة الكلية والنهائية التي طرحها الإنسان الغربي، مما يصعّب على الدارس البسيط أن يدرك الفوارق بينهما لأول وهلة .

¹ المرجع نفسه، ص 42.

² المرجع نفسه، ص 43.

³ المرجع نفسه، ص 46.

ولهذا عندما يطرح سؤال كيف نفهم الغرب؟ تأتي الإجابة كما يلي: علينا أن نفهم الغرب في ماهيته الفكرية وجذوره التاريخية وخلفياته الفلسفية وتتبع سيرورته الحضارية وممارساته الواقعية. والأمر نفسه عندما يتساءل البعض قائلًا: هل ندرس الغرب كوحدة اجتماعية وسياسية وثقافية متجانسة أم ندرسه كوحدات متميزة أو أنساق وأنظمة متناقضة كما يرى دانيال بل؟ بمعنى؛ "هل الحديث هذه الأيام عن" الغرب "باعتباره حضارة واحدة يحمل معاني أكبر مما كان عليه الأمر في العام 1918؟"¹ خصوصًا وأن بعض المنتقدين للحضارة الغربية يرون "أن الانقسام يبدو وكأنه إحدى خصائصها (...). أي أنهم قلقوا بشأن تلاشي تلك القيم المشتركة التي ربطت بعمق بين الولايات المتحدة وحليفتها في أوروبا الغربية أثناء الحرب الباردة (...). يبقى أن الانقسام الحالي بين أمريكا و"أوروبا العجوز" هو انقسام طفيف وودي بالمقارنة بالانقسامات العميقة التي كانت سائدة في الماضي حول الدين، والعقائد، حتى حول معنى الحضارة ذاتها".² فرغم ميل فرغسون إلى التخفيف من حدة الانقسام بين أوروبا وأمريكا واعتبار الانقسامات بينهما طفيفة فإن مقارنة سيد حسين نصر "تذهب بخلاف ذلك؛ فهي مقارنة تنفي الانسجام والتوافق الذي ادعاه البعض من الأمريكيين والأوروبيين، وتزعم" أن حقيقة الغرب ليست متجانسة من أي وجه كان. والحق إن الوحدة السياسية الوحيدة للغرب لا تعدوا اجتماعه على كراهية الإسلام عمليًا (...). ونعجب ما إذا كان الغربيون هو الآلاف التي تحجّ إلى كنيسة العذراء في لوورد أم الآلاف التي تحجّ إلى لاس فيجاس مسقط رأس إيفيس بريسلي، وهذا التنوع والتضاد بين الغربيين له أهمية عظيمة لا للذين يقطنون في أوروبا والولايات المتحدة الذين يتحدثون عن مكافحة العالم الإسلامي على أساس أن هناك غربًا متماسكًا فحسب بل كذلك للمسلمين، وعلى الأقل بعض الواعين منهم بالانقسامات العميقة التي لا أمل في تكاملها في وحدة في زمن منظور، ولكنها واقعيًا على وشك التفكك في ركام وفوضى في نسيج المجتمع الغربي ذاته".³

والموقف نفسه نجده عند "عبد الوهاب المسيري" وهو بصدد تحليل الحداثة الغربية التي يعتبرها "منذ البداية كانت تعاني من الانقسام، فكان ثمة مفكرون مثل إرازموس وسير توماس مور، من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ثمة مفكرون مثل مايكيايلي وهوبز. إرازموس وجد أن الإنسان مركز الكون، وهذا الإنسان هو الجنس البشري بأسره، وبالفعل بدأ الفكر الهيوماني في الغرب من نقطة الانطلاق الإنسانية الرائعة هذه. ولكن تدهور الأمر وأصبح الإنسان هو الإنسان الأبيض وحسب وسيطر على الساحة مايكيايلي وهوبز ثم داروين ونيتشة. وأصبح المشروع الحداثي يعني أن القوي يأكل الضعيف و الإنسان يقتل أخاه الإنسان. إن جوهر هذه الحداثة أنها أدركت أن الإنسان شيء وأنه يمكن تفكيكه ورده إلى المادة، ومن ثم توظيفه، وهذا ما أنتج الحداثة الداروينية".⁴ وفي النص إشارة واضحة وصريحة إلى الانقسام الذي حصل في الغرب من حيث التأسيس الفلسفي للحداثة من جهة، ومن حيث التطور والانحراف الذي حصل للوعي الغربي من جهة ثانية.

2- الغرب من الدين إلى الإنسان

الغرب وسؤال الدين

¹ نبال فرغسون: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟، ص 57.

² المرجع نفسه، ص 56، 57.

³ سيد حسين نصر: الإسلام ووعاء الإنسان الغربي الحديث، ترجمة: عمر نور الدين، ط1، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م، ص 302، 303.

⁴ عبد الوهاب المسيري: العلمانية والحداثة والعولمة، (حوارات)، تحرير: سوزان حربي، ط1، دار الفكر دمشق، 1430هـ / 2009م، ص 40.

الأسئلة الذي ننطلق منها في بيان وجه العلاقة بين الغرب والدين والموقف منه هي: ما هي جذور العلاقة بين الغرب والمسيحية؟ ما هي مكانة الكتب المقدسة في المنظومة المعرفية الغربية؟ وما هي حدود الوصل والفصل بين الكتب المقدسة والمنظومة المعرفية العلمانية الغربية؟ كيف طوّرت المنظومة المعرفية الغربية الكتاب والنص الديني؟ كيف تجرّأ الوعي الغربي على نقد الدين و الاعتراض على وجود الله وكماله، والاعتراض على النبوة والوحي، والاعتراض على أصل الأديان وطبيعتها.¹ ولماذا تبني المنظومة العلمانية القائمة على سلطة العقل والحواس في مقابل الإيمان والوحي والنبوة؟ وكيف انتقل الغرب بالدين من كونه نسقا مغلقا إلى كونه كتابا مفتوحا على جميع التأويلات والفهم والممارسات؟ لماذا اعترض المفكرون الدينيون "على كل المحاولات التي كانت ترمي إلى التوفيق بين هاتين القوتين المتقابلتين، فاعتنقوا أفكارا أكثر ثورية وأبعد عن تحقيق التوفيق؟² وكيف تضخّمت عنده ظاهرة اعتداد الإنسان بنفسه، وبرزت النزعة الإنسانية التي اعتبرت الإنسان هو الموجود الأعظم في الكون، وأنه ينبغي الاستغناء عن الله في الحياة بعدما كان هو المركز في المسيحية الأولى؟³ أمّا الأمر بخلاف ذلك تماما، بمعنى؛ أنّ ثمة توافق مبكر بين العلم والدين في الغرب؟ يقول ريتشارد تارناس: "وإذا كان الإغريق قد وقّروا الأرصدة النظرية المطلوبة بالنسبة إلى الثورة العلمية، فإنّ الكنيسة الكاثوليكية، بالرغم من كل أصفادها الدوغمائية، كانت قد وقّرت الإطار الذي مكّن العقل الغربي من التطور، وجعل الفهم العلمي قادرا على الانبثاق. وطبيعة إسهام الكنيسة كانت عملية من ناحية وعقائدية من ناحية ثانية. فمنذ بداية العصور الوسطى كانت الكنيسة قد وقّرت في أديرتها الملاذ الوحيد في الغرب. الذي مكّن إنجازات الثقافة الكلاسيكية من البقاء وروحها من الاستمرار. ومنذ انعطافة الألفية الأولى، كانت الكنيسة قد دأبت رسميا على دعم وتشجيع المشروع المدرسي الكبير للبحث والتعليم، ذلك المشروع الذي لولاه لكان من الممكن ألاّ تقوم للفكر الحديث أي قيامة إلى الأبد".⁴

ولعل من الإجابات التي نوردها على جملة التساؤلات التي طرحت ما انتهت إليه العلاقة بين الغرب والدين من "أزمة حادة سببتها الأحداث المعاصرة الناجمة عن تجربة العيش في الحضارة المدينيّة الحضريّة وما ارتبط بها من فهم وتأويل لمعنى الحياة نفسها، تلك التجربة التي جسدها الفكر التحديثي الجديد الذي نبع من المسيحيّين أنفسهم: من المفكرين والفلاسفة وعلماء اللاهوت والشعراء والروائيين والكتّاب والفنانين، أولئك الذين يمثلون الثقافة والحضارة في الغرب".⁵ الذين أعطوا معاني جديدة للمقدس وللأديان انطلاقا من خلفيتهم الفلسفية ومن نظرياتهم العلمية التي تم دمجها بالدين ونصوصه وطوروهما على مستوى الفهم والتفسير والتأويل والممارسة، بدعوة عودة المقدس إلى حياة الإنسان والعالم بمنظور فلسفي وعلمي خاص يختلف عن المنظور الديني الأصيل أو القديم، في محاولة منهم لإعادة بعث وإحياء الأديان عامة، والشرقية منها على الخصوص. يقول جيل ليوفتسكي: "لا شيء

¹ سلطان بن عبد الرحمن العميري: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ج2، ط2، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية، 1439هـ/2018م، ص 5.

² إرنست كاسيرر: مقال في الإنسان مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة: إحسان عباس، ط1، ابن الندم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الروافد الثقافية- ناشرون، بيروت-لبنان، 2020م، ص 123.

³ راجع: سلطان بن عبد الرحمن العميري: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، الجزء الثاني.

⁴ ريتشارد تارناس: آلام العقل الغربي فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، ترجمة: فاضل جتكر، ط1، العبيكان، المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، 1431هـ/2010م، ص 355.

⁵ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، ط1، المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، كوالالمبور-ماليزيا، 1430هـ/2000م، ص 27.

أغرب في هذا الزمن الكوكبي من ما نسميه "عودة المقدس"، إذ تلقى الفلسفات والديانات الشرقية (زن، الطاوية، البوذية (والباطنية والتقاليد الأوروبية) القبالة، الفيشاغورية، الشيوصوفيا، الخيمياء (نجاحا، كما أنّ هناك إقبالا كثيفا على دراسة التلمود والتوراة في المدارس الدينية اليهودية، وتكاثرا للطوائف. لا شك أنّ الأمر يتعلّق هنا بظاهرة ما بعد حداثة للغاية في قطيعة معلنة مع عصر الأنوار ومع تقديس العقل والتقدّم. فقد أصبح عقل الأنوار الذي كان مقدّسا بالنسبة للحدّثة محط تساؤل من طرف الفكر الما بعد حداثي¹ الذي لم يعد يؤمن بمطلقية العقل وقيوميّته على حياة الإنسان الغربي، ولم يعد قادرا على الإجابة عن التساؤلات الوجودية والمعرفية الكبرى التي ظلّت تؤرّق وعيه عبر التاريخ القديم والحديث. وهو ما آل بالوعي الغربي إلى طرح التساؤل الآتي: هل هي أزمة الحدّثة التي اعترّاها الشك في نفسها، وعجزت عن حل الإشكالات الأساسية للوجود وعن احترام تنوّع الثقافات وعن جلب السّلام والرفاهية للمجتمع؟ هل هو انبعاث للمكبوت الغربي في اللحظة التي لم يعد عند هذا الأخير أي معنى يقدّمه؟ هل يتعلّق الأمر بمقاومة من الأفراد والجماعات أمام تميّط الكوكب؟ أم هو بديل عن الهلع من الحركة عبر إعادة القيمة للماضي؟² الذي صار ملاذا آمنا وحلا سحريا بالنسبة لكثير من الناس، بحجة أنّ فيه عودة الإنسان إلى ذاته وفطرته وصورته الأولى التي لم تتشوّه بفعل الفلسفات والعلوم في شكل تطوّر وتقدّم وتقنية.

إنّ الذي يتتبّع تاريخ الفكر الغربي الديني والفلسفي يدرك بوضوح كيف انتقل فيه المقدّس من الدين إلى الفلسفة والعلم والفن، ومن الله إلى الإنسان، ومن الوحي إلى العقل والحس والحدس، وبالتالي صار الإنسان الغربي أمام رؤية جديدة للدين والإنسان والحياة والكون، عبّر عنها في رؤيته الفلسفية للعالم التي جاء بها الفلاسفة والمفكرون تحت مسمى عقلنة الدين والحياة، فـ "الاعتماد على قوى العقل وحده لقيادة الإنسان وهدايته في الحياة، وتبنيّ النظرة الثنائية للحقيقة باعتبارها أمراً صحيحاً، وتأكيد كون الحقيقة هي الجانب الزائل من الوجود بحيث يتم بذلك تصوير رؤية علمانية للوجود، واعتناق مذاهب النزعة الإنسانية، والنسج على منوال فكرة المأساة والملهات التي زعموا كونها هي الحقيقة الكونية الثابتة في حياة الإنسان الروحية والعلوية والباطنية بحيث تصير المأساة والملهات الأمر الحقيقي والمهيمن في طبيعة الإنسان ووجوده -إنّ هذه الأمور معاً وفي جملتها هي، في نظري، ما يكون ويشكّل الجوهر والروح والخصائص والهوية التي بها قوام حضارة الغرب وثقافته".³ وهي بنظر أصحابها حضارة ناجحة على نحو كبير، رغم ما يستشرفه البعض منهم بقوله: لماذا هي حضارة مهدّدة الآن؟ وهل ستبقى هذه الحضارة؟ وهي في اعتقادنا مفارقة يصعب حلّها من دون الرجوع إلى النصوص الفلسفية المؤسّسة للحضارة الغربية على الأقل في الفلسفة الحديثة. والكشف عن الخلفيات التي بنى عليها الغرب موقفه من الدين. وبيان المسوّغ الذي اعتمده؟ والوقوف على الانقسام الفكري والديني الذي حصل في المنظومة الغربية في الموقف من الدين؟

يعلّق الغرب المعاصر "أهمية على قداسة الحياة الإنسانية وكرامتها أكثر مما فعلت الحضارات الأخرى أو تفعل الآن، وعلى تعليم كل شعبها، وعلى المساواة في الفرص، وعلى حرية الفرد واستخدام مواهبه أو مواهبها، وعلى المساواة الجوهرية وأخوة

¹ راينر فونك: الأنا والنحن التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحدّثة، ترجمة: حميد لشهب، ط1، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت-لبنان، 2006م، ص 23.

² جيل ليويفتسكي: عصر الفراغ الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحدّثة، ترجمة: حافظ إدوخراز، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت-لبنان، 2018م، ص 122.

³ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 159.

الإنسانية، وعلى استئصال الانحياز ضد الأفراد والجماعات، وعلى تعزيز العلوم والفنون، وعلى اختراع منتجات أفضل، وأكثر ملاءمة للغرض، وعلى تخفيف المعاناة، وبالحكم بموجب هذه المعايير الغربية للحضارة (...). نجد أنه ما من حضارة أخرى اقتربت من الإنجازات الغربية¹. فالانحياز الغرب نحو العلوم والفنون، وإيمانه بقداصة الحياة الإنسانية والدفاع عن حرية الإنسان الفردية وجعلها مقدسة، وتحريم المساس بحريته ورفض القيود التي تلغي حرية الشخص وإبداعه،² يكون قد تبنت الرؤية العلمانية في مقابل الدين، وهي الرؤية التي حملت قيمًا ومثلاً علياً للإنسان الغربي وللعالم. ظل يدافع عن رؤيته العلمانية للعالم انطلاقاً مما حققته حضارته الغربية من إنجازات ونجاحات عجزت- في اعتقاده - حضارات العالم عن تحقيقها في التاريخ بالشكل والمستوى الذي بلغته حضارة الغرب وحداثه.

الغرب من تأليه الطبيعة إلى تأليه الإنسان

مرّ الوعي الغربي في تاريخه بمراحل انتقل فيها من تأليه الله إلى تأليه الطبيعة ثم من تأليه الطبيعة إلى تأليه الإنسان وأنسنة الله، وانتهى به الأمر إلى شكل من العلمنة التي أعلن فيها عن موت الله أولاً ثم موت الإنسان ثانياً، بحيث لم يعد لليقين ولا للحقيقة قيمة. وأصبحت "الحقائق الأساسية للدين ينظر إليها في إطار هذا التصور المادي للأشياء بوصفها مجرد أمور نظرية، أو يتم استبعادها تماماً. والقيم المطلقة مرفوضة ومحدودة، وبينما القيم النسبية هي التي يجري قبولها وتأكيداها، فلا شيء يمكن أن يكون يقينياً سوى اليقين بأنه ليس هناك من يقين. والنتيجة المنطقية لمثل هذا الموقف من المعرفة (...). هي إنكار وجود الله واليوم الآخر وتأكيد وجود الإنسان والعالم. فالإنسان يتم تأليهه (deified) والإله تتم أنسنته (humanized) "ويصير العالم هو الشاغل الوحيد للإنسان حتى إنّ خلوده هو ذاته يصبح كامناً في استمرار نوعه وثقافته في هذا العالم (...). فالإطار الذي تفهم فيه مفاهيم التغيير والتقدم هو دائماً إطار دنيوي يقدم باطراً رؤية مادية للوجود، وهو ما يمكن وصفه بأنه نوع من الوجودية الإنسانية".³ التي لخصت في النهاية الرؤية العلمانية الغربية في جميع مجالات الحياة الإنسانية. تم فيها التزاوج بين الرؤية العلمانية المادية للوجود والحياة من خلال القول بالقيم النسبية، والشك واللايقين، الناجمان حتماً عن إنكار وجود الله واليوم الآخر، والتأكيد على مركزية الإنسان في العالم، بمعنى أوضح؛ تم تأليه الإنسان من جهة، وأنسنة الله من جهة ثانية. والنتيجة المنطقية هو أنّ فهم مفاهيم التغيير والتقدم والحدثة والحضارة والإنسانية إنما يكون دائماً في إطار مادي دنيوي.

وقد بنى الغرب رؤيته العلمانية على محددات معرفية ومنهجية وقيمية رسمت مساره في النهاية. وأهم محدد معرفي فيها يكمن في العلم بالدرجة الأولى، ففي اعتقادهم "الواضح أنّ الغرب كان أول حضارة، وكان الحضارة الوحيدة التي تطور العلم تطويراً كاملاً، وأنّ الأسبقية التي أعطتها الغرب للعلم أقدرته على أن يغيّر طبيعة الاقتصاد والمجتمع، وأن يخلق رفاهية عامة داخل الغرب،

¹ ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ص15.

² أبو زيد بن محمد المكي: ظاهرة الصراع في الفكر الغربي بين الفردية والجماعية، ط1، مركز التأصيل للدراسات والأبحاث، الرياض، المملكة العربية السعودية، رمضان 1429هـ/2008م، ص13. راجع أيضاً: حسن الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م.

³ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص158.

وأن يحقق معجزات تقانية لم يكن بمقدور العصور الأولى، ولو أن تتصورها، وأن يقهر القارات كلها، وإن أهمية العلم الغربي ليست موضع شك، وسواء ظهر على نحو فريد أو إلى درجة غير معتادة، فهو ليس الأمر المهم، وإن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو لماذا يكون العلم غربيا على نحو متفوق؟¹ وهو المعطى الذي جعل الغربيين يؤمنون بالعلم ومنظومته في مقابل المنظومات الدينية، وانتهوا بذلك إلى التمرکز حول الإنسان وعقله وحواسه المنفصلتين عن القيمة والاستناد فقط على نتائج العلوم ومناهجها وتطبيقاتها، بمعنى آخر؛ لقد صار الإنسان هو الإله، المركز، المطلق، اليقين، والحقيقة وهي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون.² يقول ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما (انتحار الغرب) وهما بصدد الإجابة على سؤال: لماذا يكون العلم غربيا على نحو متفوق؟ "يعرف رودني ستارك العلم بوصفه" طريقة تستغل في الجهود المنظمة لصياغة تفسيرات للطبيعة، وهي خاضعة دائما للتعديلات والتصحيحات من خلال الملاحظات المنهجية (...). ويتكوّن العلم من مكونين: النظرية والبحث. وهذا التعريف يُقدّر على أن يستنتج أن" العلم ظهرة مرة واحدة فقط في التاريخ، في أوروبا العصر الوسيط. "ويضع المؤرخ إدوارد غرانت تاريخ ظهور العلم في وقت متأخر أكثر قليلا، ولكنه يوافق على أنه كان اختراعا أوروبيا: "إنه لا نزاع في أن العلم الحديث ظهر في القرن السابع عشر في أوروبا الغربية، وليس في أي مكان آخر".³

ومن الأسئلة التي يمكن طرحها هنا: ما هي أسباب هذا الانتقال من مرحلة إلى أخرى؟ أو ما هي المعتقدات التي قرّرت وتقرّر الأعمال الخاصة المميزة للغرب وللغربيين؟ يقول ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما (انتحار الغرب) (ما يلي): "لقد حقق الغرب نجاحه إلى حد كبير جدا بسبب عدد من الأفكار والأفعال الأساسية التي استلهمها الغربيون - وأدخلوها في أنماط الفكر والسلوك المتأصلة عميقا في اللاشعور في الغالب، ونستطيع أن نتبع درجة كبيرة من نجاح الغرب ونعيدها إلى ست "فكر" رئيسية أو "عوامل نجاح" وهي - المسيحية، والتفائل، والعلم، والنمو الاقتصادي، والليبرالية، والفردية، ومن الطبيعي، أن بالإمكان القيام باختيارات أخرى لما يجعل الغرب مختلفا ومهيمنًا، ولكن الفحص المتبصر للفكر الست يكشف كشفا حسنا بما فيه الكفاية طبع الحضارة الغربية وخاصياتها، ويوفر عدسة قوية لفحص تاريخ الغرب، وقوّته ووحدته الجوهرية".⁴ ويضيف في نفس السياق قائلاً: "وقد وجدنا ستة معتقدات مهيمنة، وأنماط عمل هي التي قرّرت الشخصية الغربية، وهي، المسيحية، والتفائل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية، و"عوامل النجاح" الستة هي الآن مطبوخة في طرق تفكير وتصرف خاصة ونمطية (روتينية) لا تحتاج بالضرورة إلى إعادة تأكيد، أو إلى وعي العقائد الأصلية التي تكمن خلف كل معتقد".⁵ وفي هذا إشارة واضحة إلى جهد الإنسان الغربي ونسقه المعرفي وفعله في التاريخ، الجهد الذي يؤكّد في نظر الغربيين قيمة الإنسان واعتباره إلها جديدا يمكن للبشرية أن تقتفي أثره في الوجود والحياة، من خلال طرق تفكيره وأنماط سلوكياته وتصرفاته وعقائده الأصلية التي ميّزت الإنسان الغربي الحديث والمعاصر.

يطرح نبال فرغسون مقارنة أخرى، يعرض فيها سببا آخر من أسباب انتقال الغرب من مرحلة إلى أخرى، بدأ فيها كتابه بسؤال رسيلاس قائلا: "كيف تمكّن الأوروبيون (...). من أن يصبحوا أقوياء بهذا الشكل؟ أو لماذا، (...). أما الإجابة التي قدّمها

¹ ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ص 127.

² عبد الوهاب المسيري: العلمانية والحدثة والعولمة، ص 40.

³ المرجع نفسه، ص 126.

⁴ المرجع نفسه، ص 15.

⁵ المرجع نفسه، ص 290.

إملاك فكانت أنّ المعرفة هي قوة. لكنه لم يعرف لماذا كانت المعارف الأوروبية متفوقة على معارف الآخرين. أما الآن فيسهل علينا تقديم إجابة أفضل إلى رسيلاس. لماذا سيطر الغرب على بقية أنحاء العالم، وليس العكس؟ وضعت هذا السؤال على بساط البحث لأنّ الغرب طوّر ستة استخدامات استثنائية افتقدتها بقية أنحاء العالم. أما هذه الاستخدامات فكانت:

- المنافسة.
- الثورة العلمية.
- حكم القانون.
- الطب الحديث.
- المجتمع الاستهلاكي.
- أخلاقيات العمل¹.

فما هي النقطة الحاسمة التي جعلت الغرب يتميز عن غيره من بقية العالم؟ يجيب نبال فرغسون بالتركيز على العامل المعرفي أولاً والعامل المؤسسي ثانياً في بقوله: "شهدت السنوات التي أعقبت العام 1683 تغييرات عميقة في طريقة إدراك العقل الغربي للطبيعة والحكم. نشر إسحاق نيوتن في العام 1687 كتابه *برينسيبيا*، وبعد مرور ثلاثة أعوام نشر صديقه جون لوك كتابه *أطروحة ثانية في الحكم*. يعني ذلك إنه إذا كان على المرء أن يفرّق الغرب عن الشرق في أمر واحد لكان ذلك الأمر هو تفاوت درجات السعي وراء هذه المعرفة الواسعة وتطبيقها بصورة منهجية (...). أما النقطة الحاسمة هنا فهي أنّ الفرق ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم كان اختلافاً مؤسسياً".² فرغم صحة وأهمية التبرير الذي يقدمه فرغسون في تمييزه بين الأمم والحضارات إلا أن منظومة المعرفة الغربية التي ساهمت بشكل واضح وقوي في بناء حضارة الغرب وحدثته قد أصابها أزمات عدة، إن على المستوى الرؤيوي العلماني للعالم وإن على مستوى المناهج الذي اعتمدها الفكر الغربي في سعيه للكشف عن الحقيقة. فلا يخفى على متتبع لنشأة وتطور الفكر الغربي الحديث والمعاصر انحصاره في مكونين اثنين: الكون والإنسان. وهي الرؤية معرفية التي حكمتها المحددات الوجودية ذات التركيبة الثنائية، وما نجم عنها من احتلال معرفي ومنهجي في العقل الغربي الحديث والمعاصر.

واللافت للنظر هنا، هو ذلك التوافق الكبير بين مقارنة ريتشارد كوك ونبال فرغسون في عرضهما لأسباب انتقال الغرب من حال إلى حال، وهي المقارنة التي لخصت في العناصر الست التي ذكرناها من قبل. ولكن كوك وسميث ينهيان تحليلاتهما لهذا الموضوع - رغم تحيزهما الصريح للنسق الحضاري الغربي - بروح نقدية شجاعة وجريئة عندما يطرحون التساؤلات الآتية: "ولقد رأينا كل معتقدات الغرب الأساسية الستة تقع تحت هجوم شرير مستمر في القرن الأخير، من داخل الغرب نفسه، وإلى أي مدى قد تم نقض الأفكار بالتفكير الجديد، أو بالخبرة الجديدة؟ وهل المعتقدات الجديدة، والأفعال الجديدة

¹ نبال فرغسون: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟، ص 457، 458.

² المرجع نفسه، ص 40-53.

ضرورية لإدانة نجاح الغرب؟¹ فهل نحن بهذه التساؤلات نكون بصدد الدخول إلى حضارة غربية جديدة؟ وبأية شروط أو مواصفات؟ وهل أثبتت المثل أو الفكر البست العظيمة الذي قامت عليها الحضارة الغربية فشلها أو قصورها عملياً؟ وما هي الجوانب التي خرق فيها الغرب هذه المثل أو الفكر؟ هل قُدِّر لهذه الحضارة الغربية أن تفشل من خلال قيود فرضتها على نفسها؟ هل هي حضارة مهيأة لأن تتحوّل مع الزمن إلى حضارة أقل جاذبية مما كانت عليه من قبل عندما هدفت إلى تحرير الروح الإنسانية ورفعها كما يقول كوك؟ وهل يحتمل أن تكون الحضارة الغربية أقل نجاحاً بكثير مما كانت عليه من قبل؟ ولماذا يقول كوك بالانتحار الجماعي وإمكانيته؟ وهو الذي يعتبر أنّ: الحضارة الغربية قد وصلت إلى مَفْرَق، على أحد شعبتيه، يحمل الطريق حالياً المزيد من المرور، ويوجد فيه الارتياح، والأنانية غير المطلقة، واللامبالاة، وإعادة المركزية والعدوان، وهي صفات دعت لها ومارستها معا عناصر مختلفة في المجتمع² فالقراءة النقدية ذات الأساس النفسي للحضارة الغربية توحى بشيء خطير يمكن أن تقع فيه حضارة الغرب؛ فالارتياح والأنانية المفرطة واللامبالاة والعودة إلى المركزية الغربية ذات المنزع العدواني، كلّها صفات مورست في تاريخ الغرب وثقافته، وتندر بتدمير داخلي بأيدي الغربيين أنفسهم، ذلك أنّ هذه الصفات السلبية التي برزت في الإنسان الغربي وحضارته ستؤدّي في النهاية لحالات وأشكالاً عديدة من الفوضى السياسية إلى الفاشية الجديدة، والاضطراب البيئي، إلى الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، ومثل هذه الأشكال كلّها، على كل حال، سوف تشير إلى نهاية الحضارة الغربية، بوصفها المثل الأعلى الديمقراطي والفردية الذي تخيّل الأوروبيون والأمريكيون، وغدوه واجتنبوا إليه؛ ليقتربوا اقتراباً أكثر طوال مئات السنين، والحضارة الغربية لن يدمرها أعداؤنا، ولكنها قد تُدمّر بأيدينا نحن أنفسنا³.

إنّ الروح النقدية التي يمتاز بها الكثير من المفكرين الغربيين كانت من العوامل الأساسية في تقدم وانتقال الغرب وحضارته من مرحلة إلى أخرى، روح يكسوها الأمل والتفاؤل واستشراف الأزمان قبل وقوعها وتصحيح الأخطاء وتجاوزها، ما يسمح لنا بالقول أنّ النقد هو عامل أساس من عوامل نجاح الغرب وتفوّقه، جمع فيه الإنسان الغربي بين ثقة بالنفس واعتزاز بالذات، وفي الآن نفسه الشك والريبة في ما وصلت إليه حضارته وعدم الاقتناع بما حقّقته والتطلّع إلى ما هو أفضل وأحسن⁴. وهذه الثقة والاعتداد بالذات يعكسه قول بيتر واطسون عندما كتب عام 2000 وهو يكتب تاريخاً للأفكار، قال: "إنه" في القرن العشرين، لم تنتج الثقافات غير الغربية أي مجموعة من العمل يمكن أن تقارن بأفكار الغرب (...). ومهما تكن القائمة التي تحرص على أن تصنعها عن تجديدات القرن العشرين (...). فهي تقريباً كلّها غربية"⁵. فعلى الرغم مما يحمله هذا القول من تحيّز واضح للغرب إلا أنه يعكس جزءاً من الحقيقة الواقعية التي تنتصر للغرب وتُعدّد منجزاته وتُهمش ما أبجزه الشرق خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين.

3- الغرب من التأسيس إلى المركزية

¹ ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ص 291، 292.

² المرجع نفسه، ص 313.

³ المرجع نفسه، ص 313، 314.

⁴ كارل بوبر: بحثاً عن عالم أفضل، ترجمة: أحمد مستجير، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص 13.

⁵ ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ص 126، 127.

المركزية الغربية ومسوغاتها الفلسفية

نبتدئ تحليلنا لفكرة المركزية الغربية ومقولاتها التي بثها المفكرون والفلاسفة في نصوصهم بجملة من التساؤلات التي لا غنى لنا عن طرحها، والتي أشرنا إليها ونحن بصدد حديثنا عن ثقة الغرب بنفسه واعتداده بذاته وحضاراته ومنجزاته: ما هي مسوغات التمركز حول الذات في المنظومة المعرفية والحضارية العلمانية الغربية؟ كيف تم التأسيس الفلسفي لهذه المركزية؟ وما علاقتها بالحضارة والحداثة الغربية؟ وهل يمكن للغرب -بعد الذي عرفه من تطورات ومراجعات فكرية- إحداث قطيعة معرفية مع مقولات التمركز حول الذات التي أقام عليها أحداثه وحضارته؟ كيف ساهم الخطاب الأنثروبولوجي والاستشراقي في القطع مع مركزية النظام الغربي؟ وكيف دحض هذا الخطاب بعض مظاهر المركزية العرقية المبثوثة فيه؟ كيف يمكننا الفصل بين جدلية المركزية العرقية للغرب والمركزية الحضارية، بما تحمله هذه المركزية من نظرات مشوهة أو محرّفة لثقافات الأطراف أو الآخر؟

هذه الأسئلة وغيرها، يجيب عنها فيكتور كورتيه دوليل V. Courtet-du-lisle بنوع من الجرأة قائلا: "إني أقول لكم بأن أزمة الأوروبيين لن تتوقف إلاّ يوم تُكافأ مختلف المجتمعات بطريقة تمنح فيها أشكال اللامساواة والفروق العرقية حدودا متميزة. إني لا أجاهر برأي يجرح شعور الكرامة الإنسانية، إني أصرّح بواقعة سيكون لها صدى في تاريخ كل شعوب العالم".¹ وهذا اعتراف صريح من داخل النسق الثقافي الغربي بأشكال اللامساواة التي صاحبت الوعي الغربي وممارساته العرقية، بوضعه حدودا متميزة بين الشعوب والأمم، وتأسيسه لنزعة عرقية متمركزة حول جنس بعينه أو أمة بعينها، وهي طبعا الحضارة الغربية. فلماذا يبيّن الغرب تعاملاته مع الآخر أو الأطراف على علاقة أحادية الجانب ولم يرق إلى مستوى العلاقة المحاورة والمتفاعلة مع الطرف الآخر؟² ولماذا يتبنى أطروحة التقسيم الثنائي لشعوب العالم التي قال بها اليونانيون قديما؟ أعني بذلك ثنائية: متحضّر وبربري، ولماذا تم تقسيم سكان العالم إلى قسمين: اليونانيون، أي "نحن"، والبرابرة، أي "الآخرين"، أي الأغراب. ولكي يتم تحديد الانتماء إلى هذه المجموعة أو تلك كان المقياس هو امتلاك اللغة اليونانية؛ فالبرابرة كانوا إذن كل هؤلاء الذين لا يفهمون هذه اللغة ولا يتكلمونها، أو الذين كانوا يتكلمونها بشكل سيء (...). سرعان ما ألق بهذه الكلمة معنى ثانٍ وحُكم تقيمي، إذ ترافق التضادّ برابرة/يونانيون مع تضادّ آخر-لنقله بصيغة تقريبية أولى -متوحّشون"، و"متحضّرون"³ وهل يكفي عامل اللغة لتقييم أي شعب أو أمة؟ وهل استمرت هذه اللغة بترائها وقوتها إلى يومنا هذا؟ ألا يعد ذلك شذوذا عن القاعدة الصحيحة في النظر إلى الأمم والحضارات، أعني بذلك عامل الخيرية والفاعلية والصالح والنفع؟ والابتعاد قدر المستطاع عن مفردات التوحش والبربرية التي لا تزيد الشعوب إلا انقسامًا وتمزقا وصراعا.

هل لكون الغرب صار يؤمن إيمانا راسخا بفكرة الشعب المختار التي آمن بها اليهود من قبل، وتسويق ذلك باعتباره "فنا يتم التبشير به وتداوله فيما بعد، بين الأوروبيين عبر التركيز على "الإنسان الأبيض"، وهو المسار الذي سيجعل العدالة حسب "الإيمان

¹ ليون بوليكوف: الأسطورة الآرية، منشورات كلمان ليفي، باريس، 1971، ص 223. نقلا عن: فرانسوا منصور مرشو: مقدمات الاستيعاب الشرق موجود بغير لا بذاته، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، 1416هـ/1996م، ص 94، 95.

² غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستيعاب الشرق موجود بغير لا بذاته، ص 137، 139.

³ تزفيتان تددوروف: الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، ترجمة: جان ماجد جبور، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الإمارات العربية المتحدة، 1430هـ/2009م، ص 20، 21.

والقانون "حكرا على النظام الغربي بصفته المعبر الوحيد عن" الإنسانية العالمية "على حساب الخصوصيات الأخرى كالإسلام والمسيحية الشرقية وغيرهما من المذاهب والأديان في الشرق. فعلى هذا الأساس لم يعد من قبيل المصادفة أن يُنصَّب هذا النظام المعرفي نفسه معلماً ووصياً فارضاً نفسه على الشرق من خلال تغذية تصورات غرائبية تسوغ له وصم مذاهب وأديان الآخرين بـ"السكونية" و"الظلامية" و"البربرية".¹ في مقابل الفاعلية والتنوير والتحضّر التي يدّعيها الغرب ويدعو إليها. وقد كان من نتائج هذا الادعاء أن قُسم العالم إلى قسمين: عالم متحضّر إنساني ويمثله الغرب، وعالم شرقي بربري متوحش وهو خارج إطار الإنسانية كما يزعمون. يقول ترفيتان تودوروف: "إنّ مفهوم البربرية يكتسب مشروعيتها، ويمكننا أن نستخدمه لكي ندلّ في أي زمان ومكان على أعمال ومواقف أولئك الذين إلى حدّ ما يقذفون بالآخرين خارج إطار الإنسانية. أو يحكمون عليهم بأنهم مغايرون عنهم بصورة جذرية، أو يعاملوهم بطريقة مخزية. إنّ معاملة الآخرين على أنهم لا إنسانيون ووحوش ومتوحشون هي أحد أشكال هذه البربرية".² التي ما فتئ العالم يعاني من ويلاتها ويكتوي بنار أهلها وممارساتهم البشعة إن على المستوى العسكري أو الاقتصادي أو السياسي أو حتى النفسي.

وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه إرنست رنان في مطارحاته العرقية للعقل العربي الإسلامي وثقافته وحضارته ودينه؛ فالعقل العربي باعتقاد رنان لا تقوم له قائمة" إلّا باستعارة منطق وعلوم وفلسفات "الأعراق الآرية" والتماهي بها، وكما لو أنه ليس ثمة قيم ومعايير للشعوب الأخرى الموسومة بـ "الراكدة" إلّا من خلال الهروب إلى منطق المركزية العرقية الغربية التي تريد بشئى الوسائل الاحتوائية، المباشرة منها وغير المباشرة، أن تلغي ذاتيات الآخرين-إذا لم تستطع تحثيرها-من أجل إلحاقها بعجلة اقتصادها الرأسمالي العالمي³... تحت مسمى الإنسانية والعالمية والكونية، وهي المغالطة التي تم ترويجها وتسويقها لدى بعض النخب العربية والإسلامية. والحقيقة أنّ القول بـ "الكونية في هذه الأنماط من التفكير ما هي إلّا كونية ملغومة من أجل تغطية مصالح الطبقة البورجوازية المسيطرة. لأنه حينما تبحث هذه الأخيرة عن الإنسان فلا تقصد إلّا البورجوازي. وللتمويه على هذا المسار، تلجأ إلى معادلات من هذا النوع: لا خلاص للشرق دون الحرية المملاة من قبل الغرب، و لا "عقل" دون التكيّف مع المعايير والقيم والعادات الذهنية الغربية. إنّ قدر عالم الشرق مشروط، إذّا، بوضوحه لهذا المسار وإلّا فإنّ قدره محكوم كالسابق بالامتثال إلى طبيعته "الوحشية، الخاملة، المتأخرة". لأنّ العلم الغربي توصل، حسب منطق المؤرخ فيكو "إلى رسم المحور الأبدي للتاريخ المثالي الذي تدور حوله تواريخ كل الأمم انطلاقاً من نشوئها وعبورها بتقدّمها حتى انحطاطها ونهايتها".⁴ حيث أصبحت الأمم والحضارات تقاس بمدى قربها وابتعادها عن قيم وأفكار ومعايير الحضارة الغربية وثقافتها وبمقدار تمثّلها لمنظومتها المعرفية والقيمية، فإن تحقق لها ذلك صُنفت ضمن دائرة الأمم المتحضرة. فبتعبير كلود ليفي ستروس "كل ثقافة تتطور في اتجاه مماثل لاتجاهنا، أي التي اتسم تطورها، بالنسبة

¹ غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ص 25، 26.

² ترفيتان تودوروف: الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، ص 24.

³ غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ص 97. ينظر أيضاً:

.Les Textes de Renan par J.Gaulmier; **Judaïsme et Christianisme**, Copernic, Paris, 1977, p172

⁴ غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ص 83.

لنا، بمغزى ما هي تراكمية، بينما تبدو لنا الثقافات الأخرى ساكنة. إنها لا تبدو كذلك بالضرورة لأنها فعلا كذلك، إنما لأنّ خط تطورها لا يعني شيئا بالنسبة لنا، وهو غير قابل للقياس ضمن حدود منظومة المراجع التي نستعملها"¹

مآلات المركزية الغربية

وكان من نتيجة هذا التصور للتاريخ وللآخر في المنظومة المعرفية الغربية أنّ تشكّل لدى الغرب نوع من العداء للآخر غير الغربي، بحيث صار هاجس الغرب ونظامه المعرفي والاقتصادي والعسكري هو الخوض دائما لحرب دينية مع الشرق و مع الأطراف . بحجة أنّ "العامل الروحي، بمقتضى الروح القدس وباسم قانون المسيح، يجعل المسيحيين أناسا خيبرين، أما العامل الزمني فهو الذي يقف عقبة كأداء في وجه غير المسيحيين والأشراك لكونهم مجبرين، تحت وطأة الواجبات الخارجية، على احترام السلام والالتزام بالسكون، سواء قبلوا أو أبوا ذلك"². "وكان محرّك الإنسان الغربي في كل تاريخه الطويل وانطلاقا من خلفيته المعرفية والحضارية، هو العداء المباشر بشكل ظاهر أحيانا وخفي أحيانا أخرى لكل ما يختلف عنه، وذلك بالسعي للسيطرة عليه وممارسة كل أشكال الاستعمار والعبودية ومحاولة إبادة الآخر والقضاء عليه، وهذا باعتراف المفكرين الغربيين أنفسهم الذين أرحوا لهذه السيطرة الغربية على بقية العالم خصوصا في العصر الحديث، فهذا إدغار موران يقول "إذا كان في تاريخ المعمورة من سيطرة باللغة الشراسة، فهي تتجسّد بسيطرة أوروبا على سائر أنحاء العالم بدءاً من القرن السادس عشر. يكفي أن نذكر بالاستعمار والعبودية أو بالنخاسة لنقتنع بذلك. وما حصل هو أنّ مركز السيطرة هذا، الذي هو الغرب، أنتج قيماً يحتمل أن تكون شمولية، وقد استند إليها الخاضعون ليجدوا سبيل تحرّهم. إنّ المحرّرين من الاستعمار لم يتمكنوا بالفعل من التحرّر، إلّا بتبني مبدأ حق الشعوب والأمم بتقرير مصيرها. هذا الانتشار للحقوق الغربية بلغ حدا يجعلنا اليوم نأسف لعدم تعميم حقوق الإنسان والمواطن بما يكفي، وكذلك حقوق المرأة، إذا كان في ذلك بالطبع استجابة للطموحات الأساسية للذين يعانون من السيطرة"³.

4- الغرب وسؤال العلمنة

أزمة الغرب المسيحي والاتجاه نحو العلمنة

بالعودة إلى تاريخ الغرب وأفكاره خصوصا في شقه الديني نقف على الأزمة التي عاشها المجتمع الغربي على المستويين الرسمي والشعبي، أين عرفت منظومته الدينية بعض الهزات المعرفية والدينية الكبيرة، أفضت في النهاية إلى ما يسمّى بأزمة الغرب المسيحي كان من نتائجها الاتجاه صوب العلمنة بكل ما تحمله كلمة علمانية من معنى، عبّر عنه الفلاسفة بالتحول العميق في الحياة العقلية

¹ Claude Levi Strauss, *Race et Histoire*, Paris, Edition, Garthier, 1961, p 41.

نقلا عن: غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ص 84.

² مارتن لوثر: السلطة الزمنية وبأي معيار ندين لها بالطاعة،

De L'autorité Temporelle et dans Quelle mesure on Lui obéissance, Paris, Trad., J, LeFevre; 1973, p85.

نقلا عن: غريغوار منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغيره لا بذاته، ص 25.

³ إدغار موران: أخلاقيات التعقيد ومشكلة القيم في القرن الحادي والعشرين، ضمن كتاب: القيم إلى أين؟، ترجمة: زهيدة درويش جبور وجان جبور، الجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، "بيت الحكمة" واليونيسكو، قرطاج-تونس، 2005م، ص 107.

والروحانية للإنسان الغربي أعقبتها بطبيعة الحال تغيرات موازية في الميدان الاجتماعي والسياسي.¹ أين تم تجرّد عالم الطبيعة من المعنى الروحي وأبعدت السياسة من الدين، وعزلته عن كل شؤون حياة الإنسان ومناحيها. وأبعدت القيم المقدّسة من تفكير الإنسان وسلوكه كما يقول العطاس.² والسؤال الذي يطرح هنا هو: ما جذر العلاقة بين حركة العلمنة والعقيدة الإنجيلية؟ هل شكّلت العلمنة أزمة في الغرب كما توقّعها عدد من علماء الكلام مع بداية القرنين الأخيرين؟ وما طبيعة الأزمة الدينية والفكرية التي وقعت في الغرب وأوقع فيها الغرب العالم بشعوبه وقومياته المختلفة والمتعدّدة؟ وهل ثمة مبرّر قوي لوجود علاقة بين العقيدة الإنجيلية والعلمنة أو بتعبير أوضح هل للعلمنة جذور في العقيدة الإنجيلية كما يدّعي البعض؟ يجيب العطاس قائلا: "أما الزعم بأنّ للعلمنة جذورا في العقيدة التوراتية وأنها ثمرة للإنجيل، فزعم لا أصل له في حقائق التاريخ. إنّ جذور العلمنة لا تكمن في عقائد الكتاب المقدس، بل في تأويلات الإنسان الغربي لها. إنها ليست ثمرة الإنجيل، بل هي ثمرة للتاريخ الطويل للصراع الفلسفي والميتافيزيقي بين رؤيتين كليتين للوجود يصدر عنهما الإنسان الغربي: واحدة دينية والأخرى عقلانية خالصة. إنّ التساند والاعتماد المتبادل بين التأويل والرؤية الكلية للوجود يجري في إطار التاريخ، ومن ثم يُنظر إليه بوصفه "تطورا". وفي الواقع فقد كان ذلك أمرا منطقيًا في تاريخ الغربيين؛ إذ إنّ الحقيقة أو الله نفسه قد حلّ وتجسّد في الإنسان في سياق الزمان والتاريخ.³ والنص ينفي نفيا قاطعا أن تكون للعلمنة جذور في العقيدة الإنجيلية، ويشير بوضوح إلى أن حركة العلمنة إنما نتيجة طبيعية لعملية التأويل الفلسفي والديني الذي ظهر في المجتمع المسيحي، والذي وقع تحت تأثير العقل الفلسفي وأدواته النقدية والتأويلية، ما جعل الوعي الغربي يعيش صراعا طويلا بين الفلسفة والدين أو بين العقل والوحي داخل النسق الثقافي الغربي المسيحي. وهو ما جعل المسيحية تنفرد بتعبير العطاس "من دون أديان العالم الكبرى جميعا بأنها حولت مركز ظهورها من القدس إلى روما، علامة على بداية تغريبها (Westernization) وعلى خضوعها للتدريج والمستمّر لحشد من العناصر الثقافية الغربية، تلك العناصر التي أدت في المراحل اللاحقة من تاريخ المسيحية إلى نشوء العلمنة وتسارع مسارها واشتداد زخمها." ⁴

وعملية التغريب التي عرفتها المسيحية كانت مؤشرا واضحا على بداية علمنتها، العلمنة التي كانت نتيجة لسوء تطبيق الفلسفة الإغريقية على الفكر الديني الميتافيزيقي الغربي. ما أفضى في القرن السابع عشر إلى قيام ثورة علمية ابتدأها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596/1650) بطرحه لمبدأ الشك وما صاحبه من تأثيرات على مسار العقل الفلسفي الغربي بالخصوص، مثمرا لنزعات إلحادية ولا أدريّة وفلسفات نفعية ومادية ومناهج جدلية ونظرية النشوء والارتقاء الخ.⁵ وما إلى ذلك من الأفكار والمناهج التي ظهرت في تاريخ الفلسفة الحديثة وما شابها من الغموض وأحيانا من التناقض، أفقدها الانسجام والتوافق، وأبعدها عن قيم الحق والصدق واليقين، وجعل منها مجرد فرضيات متناقضة. يقول "برنار غروتويزن" في كتابه: "فلسفة الثورة الفرنسية" (إننا كلّما أمعنا في دراسة الفلسفة وجدنا فيها مزيدا من الشك، وإنّ ما تؤكده لنا مذاهبها ليس أكثر من آراء محتملة الصدق كثيرا أو

¹ أ.م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قربي، ط1، عالم المعرفة، العدد 165، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 1992م، ص 34.

² سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 20.

³ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 46.

⁴ المرجع نفسه، ص 46.

⁵ المرجع نفسه، ص 48، 49.

قليلا . فمن أرسطو إلى أبيقور وديكارت ليس هناك أكثر من فرضيات جميعها في تناقض بعضها مع بعض . ومن هذا التناقض يجب أن نستخلص أن الأمور تعرض بوجهات نظر مختلفة وأنّ كلاً من وجهات النظر هذه يرتدي مظهر الحقيقة، وأنّ العلاقة بين هذه الحقائق ليس من شأنها أن تجعل هذه الحقائق ينهض دليلاً على بعض¹ "فافتناد الفكر الفلسفي الغربي إلى ناظم معرفي ومنهجي يوجهه ويضبط حركته في التأمل والنظر والتدبر جعل معارفه متذبذبة وأحياناً متناقضة، وهذا أمر طبيعي ومنطقي؛ ذلك أن الفعل الفلسفي والديني التي لا يضبطه ضابط ولا ينظمه ناظم متعالٍ يكون بالضرورة ضحية للتأويلات والتخمينات التي تفتقد إلى الحقيقة والصدق . والدليل على ذلك، إنما يكون بالنظر إلى عجز العقل ومحدوديته في النظر والتأمل والتدبر والتفكير . يواصل " برنار غروتوين "تدليله على الفكرة التي ناقشناها للتو رغم اختلافنا في المرجعية وزاوية النظر إلى الموضوع بقوله: " والعقل العملي المحض هو كالعقل النظري عجزاً، وحتى لو سلّمنا بأننا قد منحنا العقل كيما يدلّنا على الطريق القويم فكيف يمكن أن نثق به وما هو إلا شيء مشكوك فيه، متذبذب، متموّج بحيث نستطيع أن نوجّهه إلى كل جهة حسبما نشاء؟ أما الإنسان فإنما هو فوضى وصراع عنيف بين الروح والجسد، بين العقل والحس، بين النفس الحساسة والنفس العاقلة، وليس في هذا العالم بأسره مسرح يمثّل عليه مشهد أغرب من المشهد الذي تقدّمه نفس الإنسان، وليس في العالم من مخلوق أغرب وأصعب فهما على العقل من هذا الكائن الذي يزعم أنه مفكّر، والذي لا يعرف كيف يوفق بين ما يعتقد وما يفعله والذي تبدّل أهواؤه بين عشية وضحاها² ". فعندما يتعد الإنسان عن المرجعية السماوية الموجهة لحركته في الفكر والحياة يكون من المنطقي جداً ان يعيش هذا التذبذب والصراع بين مكوناته العقلية والروحية والنفسية والجسدية، وهو برأينا ما وقعت فيه المنظومة العلمانية الغربية تماماً، بقيت في كل مرة تبتعد عن الموجه وتتجه صوب العلمنة والعقلنة والأنسنة والأرخنة التي أسّس لها الفلاسفة والمنظرون المحدثون في الفكر الغربي .

وكان من ثمار نزعة العلمنة التي ظهرت في الغرب المسيحي أن برزت فيه أزمة حادة يقول " إدغار موران " في كتابه إلى "أين يسير العالم؟": "كيف استطاع البعض الاعتقاد أننا فوق قشرة الغرب هذه الرقيقة والضعيفة، والمحلية، والمؤقتة، نمارس البناء فوق سطح صخري صلب؟ ألم يكن القرن العشرون، على العكس من ذلك، قرناً في أزمة، بل قرن الأزمة؟ ألم يفتح أزمته الذاتية، سنة 1914، واليوم ألسنا في مواجهة أزمات مترابطة، مركبة، متصادمة، وفي بعض الأحيان يطل أحدها مفعول الآخر؟ وهنا، ينبغي علينا توضيح لفظة أزمة، وهي لفظة أصبحت فارغة لفرط استعمالها . لكن ينبغي علينا الإشارة، إلى أن الاستعمال المتعدد للفظ "أزمة" (أزمة التقدم، أزمة الحضارة، أزمة المراهقة، أزمة الزواج، الخ .) يترتب على تكاثر علامات أزماتية (...) لنحاول الآن تحديد هذه اللفظة . عندما نلقي نظرة أولى، فإننا نلاحظ أن الأزمة لا تظهر فقط عند حدوث انكسار داخل اتصال، أو عندما تتكاثر الاحتمالات وبالتالي التقلبات . إنما تظهر بفعل انقلاب التكاملات إلى عداوات، وعند تحوّل الانحرافات السريع إلى نزعات، وعند تسارع مسارات مهدّمة/مفكّكة/مفعول ارتجاعي إيجابي (وعند حدوث قطيعة في صلب التنظيمات، وبالتالي عند اجتياح مسارات منفلة من كل رقابة وميالة إلى التضخّم الذاتي أو إلى التصادم القوي مع مسارات عدائية أخرى تنفّلت هي نفسها من كل رقابة³ "

¹ برنار غوتوين: فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة: عيسى عصفور، ط1، منشورات بحر المتوسط، منشورات عويدات، بيروت-لبنان، 1982م، ص17.

² المرجع نفسه، ص17.

³ إدغار موران: إلى أين يسير العالم، ترجمة: أحمد العلمي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، مقاليد وزارة التعليم العالي، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م، ص24.

ولهذا يربط موران بين فكرتين أثناء تحليله لأزمة الغرب وثقافته والتي يصفها أحيانا بالبربرية، فالفكرة الأولى برأيه تتمثل في كون الأزمة أصبحت هي نمط وجود المجتمع الغربي، أما الفكرة الثانية فهي كون التقدم يحمل في نفسه خاصية أزماتية، و"التقدم لا يحدث فوق أساس ثقافي وحضاري ومجتمعي: إن التقدم غير منفصل عن عملية تحطيم/وتغيير لهذا الأساس، وهذا المجرى المنشئ للفساد/ وإعادة بعث النظام هو خاصية هذا البعد الأزماي. وهكذا يبدو أن أزمة الحضارة، فيما يخص المجتمعات الغربية، وأزمة الثقافة، وأزمة القيم، وأزمة العائلة، وأزمة الدولة، وأزمة الحياة الحضرية، وأزمة الحياة القروية، الخ. هي جوانب متعددة لكيان مجتمعاتنا، الذي يبدو كيانا مأزوما، وهي مجتمعات تهددها هذه الأزمة، لكنها مجتمعات تتغذى منها¹."

وليس بعيدا عن مقارنة موران القيمة لأزمة الغرب المسيحي الذي تحول إلى العلمنة، تأتي مقارنة جيروم بندي في القول بأن "هذه الأزمة القيمة الكبرى التي هزت بعمق القرنين الماضيين، أفضت إلى تشويش الثوابت اليقينية في اتجاهات متعددة. فهل أن غياب أساس تجاوزي يتيح إسناد القيم المستقرة إلى سماء دهرية، أن تلقى خالصة عبر وحي لا تشكيل فيه، يعني أن القيم إلى أقول؟ أم أنه يجب في عالم يتميز بالتقاء كوني للثقافات، أن نتوقع تناقضات حادة، وصدامات قد تكون عنيفة بين قيم متعاكسة. أم أننا سنشهد ربما تهجينات غير متوقعة ومجددة بين نظم قيمية تعود إلى أصول واتجاهات هي اليوم غريبة الواحدة عن الأخرى؟" ² وهذا التحليل برأينا يوحي بالنتيجة الطبيعية التي آل إليها الغرب خاصة على مستوى منومته في القيم والتي عرفت هزات كبرى، راجع وتراجع فيها الغرب عن ثوابته اليقينية التي كانت في مرحلة زمنية معينة مرتبطة بالسماء، يوجهها الوحي الذي لا يراوده شك، إن غياب الأساس التجاوزي لبناء نظرية أو نسق للقيم أفضى في النهاية إلى حالات من التشويش والصدامات العنيفة. إن الأمر لا يخرج عن كونه تراجع للدين وصعود للعلم وفلسفته التي حكمت الغرب طيلة القرون الثلاثة الأخيرة. وهو ما يؤكد العطاس في قوله: "بحلول النصف الأول من القرن التاسع عشر كان أوغست كونت-Auguste Comte الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي- قد رسم صورة لصعود العلم وتراجع الدين وتواريه، وفقا للمنطق العلماني الذي حكم تطور الفلسفة والعلم في الغرب، وذلك بناء على أن المجتمع الإنساني "يتطور" و"يتقدم" من عهود البداوة والتخلف إلى عهود التقدم والحداثة. ولاحظ كونت كذلك أن التفكير في قضايا ما وراء الطبيعة والغيب ليس إلا حلقة في المسلسل التطوري من الفكر الديني إلى التفكير العلمي³."

التطور الذي جعل الغربيين يعتبرون مبدأ النسبية أساسا من أسس الصيغة الجديدة للمسيحية، وذلك عندما اعتقدوا أنها مثلها مثل كل الصيغ التي ظهرت أو التي ستظهر فيما بعد، لن تستقر على حال أو صيغة، بل ستظل مع الزمن تتغير وتبدل إلى ما لا نهاية "إذ أن كل صيغة ستخلي المكان لأخرى بديلة حسب متطلبات التغيرات الاجتماعية في المستقبل. وهم ينظرون إلى التجربة العلمانية المعاصرة على أنها جزء من عملية "النمو" في التاريخ البشري وجزء من التطور نحو "النضج"، حيث يكون من الواجب "التخلي عن الأشياء الطفولية"، ويكون من اللازم أن يكون للإنسان الشجاعة على البقاء جزءا من العملية "الحتمية" للتغيير الاجتماعي والسياسي". ⁴ هذا الاعتقاد الذي ساد لدى الغربيين هو المسوغ القوي بالنسبة لهم لكي يدعون إلى ضرورة

¹ إدغار موران: إلى أين يسير العالم، ص 25.

² جيروم بندي: مقدمة عامة، ضمن كتاب: القيم إلى أين؟، ص 16.

³ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 27.

⁴ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 30، 31.

التخلي عن الدين بكل أشكاله، كونه يمثل مرحلة الطفولة التي تفتقد إلى النضج، وبالتالي لابد للإنسان من أن يساير التطور الطبيعي للبشرية في انتقالها من الدين إلى العلمانية ومن الوحي إلى العقل ومن الله إلى الإنسان، ومن المطلق إلى النسبي ومن اليقين إلى الشك والريبة والإلحاد. فالغريون يرون ويعتقدون " أنه في عالم بلغ الرشد لا يجوز أن يظل الفكر المسيحي محصوراً بين أوهام الطفولة إذا ما أريد له أن ينهض لمواجهة تحديات النضج الحقيقي الذي هو مُقدم عليه. ولا بد أن يكون ذلك بقوة دفع جديدة تُستخلص من فلسفة الظواهر ((phenomenology التي أرساها إدموند هوسرل Edmund Husserl والفلسفة الوجودية التي أرسى قواعدها مارتين هايدجر Martin Heidegger والتي عضدتها التطورات الحديثة في التحليل اللغوي التي جاء بها فلاسفة اللغة، وخاصة أولئك المنتسبون منهم إلى ما يعرف بحلقة فيينا¹."

هذه التطورات وغيرها التي عرفها الفكر الغربي على المستويين الفلسفي والعلمي جعل الغربيين يقتنعون بمسار العلمنة ومتطلباته في الواقع، خصوصاً بعدما أحسوا بالاتجاهات الناجمة عن الأحداث والأفكار المعاصرة، وبعد أن اعترفوا بخطورتها على المسيحية وعلى العالم الغربي، فراحوا يقبلون بما وقع عندهم من أزمة دينية وفكرية فوقوا تحت تأثير تيار العلمنة، وصاروا يدعون العالم إلى المشاركة في مسلسله، وهو المسار الذي يرى كثير من الغربيين أنه اتجاه ينتشر في كل أنحاء العالم بصورة لا تُقاوم وبشكل كأنه وباء مُعد لا خلاص لنا منه بل علينا تقبله والتأقلم معه. من دون النظر في عواقب هذا المسار ومضاعفاته على الفكر والحياة الفردية والجماعية.²

الغرب وحتمية العلمنة

يرى تشارلز تايلور أنّ العلمنة تفهم وتدرس على ثلاثة أشكال، ينبغي علينا التمييز بين دلالاتها الثلاث أو مستوياتها الثلاثة المختلفة والمتكاملة:

- الدلالة الأولى تتعلق بالسياسة وتتمثل بانسحاب المظاهر الدينية تدريجاً إلى خارج الفضاء العام .
- الدلالة الثانية: تتعلق خاصة بالظاهرة الدينية بمعنى الكلمة -والمقصود في المجال المدروس هو الدين المسيحي بصفة جوهرية -وتتصل بالانخفاض الملحوظ في الاعتقاد والممارسات.
- الدلالة الثالثة، أكثر " وجودية"، وتستخدم كسلك موصول للكتاب وتشكل نقطة الارتكاز له، وتتمثل في " شروط الاعتقاد الجديدة".

¹ المرجع نفسه، ص33.

² المرجع نفسه، ص28.

تحليل هذه الشروط بنظر تاييلور يسمح لنا بفهم أفضل لعدم إمكان اختزال الأوضاع المعاصرة إلى التعارض بين إيمان ربما ظل ساذجا، شبه طفولي، وعقل حديث متحرر ومطمئن إلى أحقيته في التمييز بين الممارسات الحسنة والردئية، بين تمثّلات تقدّمية وتصورات عفا عليها الزمن¹.

غير أنّ أسئلة تتبادر إلى أذهاننا مفادها: هل العلمنة تعني زوال الدين ووظيفته؟ وهل هي مسار حتمي لا خيار لنا في قبوله والسير في نهجه وطروحاته؟ وهل البشرية ملزمة في التحرر من هيمنة الدين وسلطته وتوجيهاته القيمية بالخصوص؟ وما وجه العلاقة بين العلمنة وتطور حركة الإنسان في التاريخ، في ظل الثورات العلمية والأفكار الفلسفية التي ظهرت في العصر الحديث؟ وما موقع المقدس من المسار العلماني وتطوراتها في الواقع؟ يجيبنا تشارلز تاييلور عن هذه الأسئلة بقوله: "فالعلمنة (...) تعني "زوال وظيفة الدين في تحديد رموز التوحيد والاندماج الثقافي للمجتمع" وهي تعني أنّ هناك "مسارا تاريخيا لا رادّ له تقريبا هو الذي يتحرر بمقتضاه المجتمع والثقافة من الخضوع لوصاية الدين والأنساق الميتافيزيقية المغلقة". والعلمنة تطور تحرري "وثمرتها النهائية هي النسبية التاريخية. وهكذا فإنّ التاريخ بالنسبة للعلمانيين عبارة عن سيرورة لتحقيق العلمنة. إنّ العناصر المكوّنة للعلمنة تتمثّل في عدم الانبهار بالطبيعة، وتحرير السياسة من الدين، ونزع القداسة عن القيم (...) بحيث لا يرى الإنسان بعد ذلك في الطبيعة أيّ أثر للخلق الإلهي. وبذلك يفتح المجال الإنساني للتصرّف في الطبيعة بحرية واستخدامها وفق حاجاته وغاياته، ومن ثم فهو يصنع التغيير التاريخي ويحدث "التطور" في حياته".² من هذا المنطلق جاء رأي بعض الفلاسفة الغربيين المعاصرين الذين دعوا إلى ضرورة إحداث "قطيعة معرفية بين العقل العلماني والفكر الديني، مع منح الأفضلية للأول، يمكن لنا أن نكتفي بالعقل العلماني للوصول إلى النتائج المعيارية التي نحتاج إليها، مثل تأسيس شرعية الدولة الديمقراطية وتعريف أخلاقنا السياسية".³

يبدو واضحا من كلام تاييلور وهابرماس أنه ينبغي علينا إعطاء الأولوية للعلمانية على الدين، غير أنّ هذا الموقف من الدين وقيمه بحسب دعاة العلمانية يتطلّب من الإنسان العلماني يقظة ووعياً، بحيث يدرك أنّ أفكاره ومعتقداته كلّها نسبية، وعليه أن يدرك بأنّ القوانين والقواعد الخلقية للسلوك التي تحكم حياته متغيّرة عبر العصور والأجيال. وهو موقف يتطلّب ما يراه المنظرون للعلمانية "نضجا ورشدا (...) "وعليه فالعلمنة إنما هي عملية" تطوّرية "لوعي الإنسان من مرحلة" الطفولة "إلى مرحلة" النضج ". ولذلك تعرّف بأنّها "قضاء على التبعية الطفولية في كل مستوى من مستويات المجتمع (...) إنها عملية نضج ورشد وتحمل المسؤولية، أو قل إنها التحلّي عن كل سند ديني أو غيبي) ميتافيزيقي (، وجعل الإنسان يعتمد على نفسه".⁴ العلمنة بهذا المعنى وهذا التحديد تعدّ ثمرة من ثمرات تطور وعي الإنسان الغربي وانتقاله من حال إلى حال، أكسبه وعيه في كل مرحلة من مراحل التطور والتغيّر فهماً

¹ سيلفي توسيع (إشراف): شارل تاييلور الدين والعلمانية، ترجمة: محمد أحمد صبح، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، 1437هـ/2016م، ص 13.

² المرجع نفسه، ص 43، 44.

³ يورغن هابرماس وآخرون: قوة الدين في المجال العام، ترجمة: فلاح رحيم (تحرير: إدوارد منديتا-جوناتان فانانويرين) ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 2013، ص 89.

⁴ سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ص 44.

جديداً للعالم والحياة، الفهم الذي يجعل منه أكثر نضجاً ورشداً ومسؤوليةً، وينطلق به نحو العلمنة كمسار حتمي لا نهاية له ولا حدود، أين " تخضع فيه القيم والرؤى الكلية للوجود للمراجعة الدائمة حسب ما يقتضيه التغير في المسيرة" التطورية "للتاريخ".¹

يتبدى لنا من هذا الكلام أنّ الغربيين نظروا إلى الدين " بكونه ظاهرة تاريخية أو في إطار عقيدة يجري التعبير عنها بشكل غامض مبهم . ومن ثم قبلوا ذلك التعريف الذي صاغه أسطانيهم العلمانيون الذين يعدّون الدين جزءاً من الثقافة والتقاليد، وينظرون إليه بوصفه نظاماً من المعتقدات والممارسات والمواقف والقيم والتطلّعات التي نشأت عبر التاريخ نتيجة لصراع الإنسان مع الطبيعة، "غير أنّ السؤال الذي قد يطرحه البعض هنا هو :هل هذا المسار الحتمي للعلمنة يجعل منها رؤية مغلقة ومجموعة من القيم المطلقة المتوافقة مع غاية نهائية للتاريخ تنطوي على أهمية كبرى للإنسان؟ ألا يعني ذلك أنّها وقعت في ما وقع فيه الدّين من كونه منظومة مغلقة كما يدّعي العلمانيون؟ وهل العلمانية تعني في النهاية منظومة إيديولوجية (ideology) وضع فيها الإنسان الغربي أسساً دينية جديدة لمسيحية ذات سمات علمانية؟³ مسيحية من دون إله ولا وحي ولا شرائع. أعلن فيها الإنسان عن موت الإله وموت المسيحية ذاتها، بل وحتى موت الإنسان كما قال ميشيل فوكو". حتى أنّ بعض العلماء المؤثرين من المسيحيين، وخاصة البروتستانت الذين يبدو أنهم قد تقبلوا مصير المسيحية التقليدية بتسليم بحكم ميلهم نحو التغيير، بدأوا في وضع ترتيبات لأسس دينية جديدة على أنقاض المسيحية التقليدية، بحيث تنبعث من هذه الأسس الدينية الجديدة مسيحية حديثة ذات سمات علمانية".⁴ عبّر عن هذا المعنى برنار غوتوين في وصفه لأحد فلاسفة التنوير في أوروبا بقوله: "عندما تمر في خاطري ذكرى ديدرو وتنوّع أفكاره الهائل ووفرة معارفه المذهلة وما عليه خياله من اندفاع سريع ومن حرارة ومن صخب عنيف .وعندما أذكر كل ما في أحاديثه من سحر وكل ما فيها من بلبلّة، فيأني أبيع لنفسي أن أقارن روحه بالطبيعة كما كان يراها هو نفسه غنيّة خصبة زاخرة بالبذور من كل نوع، رقيقة ذات جفوة، بسيطة جليلة، خيرة سامية، إلّا أنّها لا مبدأ لها يُهيمن عليها ولا سيّد ولا إله".⁵

والإجابة على مثل هذه الأسئلة تكشف حجم التناقضات التي وقع فيها فلاسفة التنوير في تحديد مفهومهم للإنسان وتأكيدهم لمسألة المعقول والطبيعي في طبيعة الإنسان وحياته الفردية والاجتماعية، تناقض ناجم عن تذبذب في المرجعية الفكرية التي انطلق منها فلاسفة التنوير عندما حصروا المرجعية في الإنسان والطبيعة، وأبعدوا كل مرجعية متعالية ومتجاوزة كما يسميها (المسيحي) ت. (2008) يعلّق تمارا دلوّج في كتابه: "افتتاحات فلسفة التنوير دينس ديدرو" عن مسألة التناقض الذي وقع فيه التنويريون "هنا يكمن التناقض المتأصل والمتلازم في طبيعة المفهوم الموجود في كتابات هؤلاء الفلاسفة، فالتطورات المتعدّدة اجتناباً سوف تقود عاجلاً أو آجلاً إلى إعادة تأويل مفهوم الإنسان .ولكن عملية إعادة تأويل الحقيقة المطلوبة آنذاك لم تأخذ مكانها حقاً إلا بعد مضي عشرات السنين لاحقاً".⁶

¹ المرجع نفسه، ص 45.

² المرجع نفسه، ص 52.

³ المرجع نفسه، ص 45.

⁴ المرجع نفسه، ص 28.

⁵ برنار غوتوين: فلسفة الثورة الفرنسية، ص 32.

⁶ تمارا دلوّج: افتتاحات فلسفة التنوير دينس ديدرو، ترجمة: عماد نبيل، ط1، دار الفارابي، بيروت-لبنان، 2013م، ص 72.

خاتمة:

ننتهي في بحثنا هذا إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

- الغرب ظاهرة حضارية ومقولة ثقافية جمعت بين سمتي الوحدة والتنوع من جهة والانسجام والانقسام من جهة ثانية، وحدة القواسم الثقافية المشتركة بين أوروبا وأمريكا وأستراليا، وانقسامه إلى عالمين: العالم الأوروبي باعتباره جوهر الغرب وأساسه، والعالم الأمريكي ذي التوجّه الخاص في السياسات الاقتصادية والاستراتيجية بما هو قوة وسلطة، لها رؤيتها واتجاهها، نافست أوروبا ومساها وعملت على إيجاد خط موازي لفلسفتها واستراتيجيتها.
- التنوّع والاختلاف الجغرافي والتعدّد الاثني المكوّن للغرب: أوروبا وأمريكا وأستراليا لم يمنع من تشكيل ماهية الغرب وامتزاجه فكرة وواقعا، نتيجة للأسس والقواسم المشتركة التي ساهمت في بناء وحدته.
- تضافرت عناصر عدة في بناء الغرب وتميزه، وتمكينه من آليات التحضر والتحديث والسير به نحو السيطرة والهيمنة والنفوذ على المستويات الفكرية والسياسية والإدارية والعسكرية والاستراتيجية، بما امتلكه من مقومات التقدّم والتطوّر وشروط النهضة جعلت من رؤيته العلمانية تسود العالم وتساهم في انخراطه في العولمة وتحقيق متطلباتها.
- انتقل الغرب في بناء علمانيته من إيمانه بالإنسان باعتباره جنسا بشريا، إلى التمرّكز حول مقولة الإنسان الغربي المتحضّر في مقابل الإنسان غير الغربي المتوحّش أو البربري. حيث تحوّل الوعي الغربي ذي التوجّه العلماني من تقديس الطبيعة وتأليها إلى تأليه الإنسان وظهور ما يسمّى بالنزعة الإنسانية.
- انضبطت علاقة الغرب بالعلمانية بصورة جدلية، خضعت فيه إلى وصل وفصل، حيث تجاذبته آراء الفلاسفة والتنويريون بين دعوة إلى علمانية شاملة وكلّية للفكر والحياة، وعلمانية جزئية، تحفظ للدين مكانته وحضوره وموقعه في المجتمع ومؤسّساته.
- انتقل الغرب من تقديس الدين إلى تقديس الإنسان، ومن الاعتقاد بالله إلى الاعتقاد بالإنسان، ومن الوحي إلى العقل، ومن الدين إلى الفلسفة والعلم، في متتالية تاريخية تجلّت في الرؤية العلمانية الحديثة للعالم.
- عرف الغرب الحديث والمعاصر تطورات وتغيّرات عميقة مسّت نظامه المعرفي والقيمي، بما انتهجه في الواقع من فلسفة في الوجود عكستها فلسفاته وعلومه وفنونه وآدابه وممارساته، بما هي طريقة غربية مخصصة في إدراك الحياة وتعقّل العالم .
- أسّس النسق المعرفي الغربي لمقولة التمرّكز حول الذات، وأعاد إحياءها من جديد، بعدما آمن بها الإغريقون القدماء في نظرهم إلى أنفسهم وإلى الأقوام البربرية من حولهم، في إطار ثنائية أو تضاد يونانيون متحضّرون /برابرة متوحّشون.
- كشفت الدراسات النقدية المعاصرة للمنظومة العلمانية وآلياتها في علمنة الفكر والوجدان والسلوك والحياة عن ضعف الأطروحة العلمانية واختلال فلسفتها ومنهجيتها في التفكير والتدبير، ومحدودية رؤيتها للوجود والمعرفة والقيم، تجلّت في

شكل أزمات في الفكر والمنهج والقيم، جعلت الإنسان الغربي يعاني من حدة أزماته ومخاطر صداماته، وضيق مآلاته وتخوف من مستقبله .

- أدرك بعض الغربيين مآلات تراجع الدين عن حياة ووجود الإنسان، ومخاطر تصاعد عمليات العلمنة ومنطقها في العمل والنظر إلى الأفكار والأشياء والأشخاص، بحيث انعكس محور التطور والتقدم والتحضّر إلى التخلف والبداءة والتوحّش كما وصفه إدغار موران، لم تعد معه العلمانية والعلمنة حتمية تاريخية بقدر ما هي خيار من الخيارات المتعددة للإنسان، خيار لا يلغي الدين ولا ينفي وظيفته في الواقع، بل يدعو إلى العودة إليه والعيش في ظل فلسفته وتشريعاته وقواعده الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية.

المصادر والمراجع

- أ.م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قري، ط1، عالم المعرفة، العدد165، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 1992م.
- أبو زيد بن محمد المكي: ظاهرة الصراع في الفكر الغربي بين الفردية والجماعية، ط1، مركز التأصيل للدراسات والأبحاث، الرياض، المملكة العربية السعودية، رمضان 1429هـ/2008م.
- إدغار موران: إلى أين يسير العالم، ترجمة: أحمد العلمي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، مقاليد وزارة التعليم العالي، المملكة العربية السعودية، 1430هـ/2009م.
- إرنست كاسيرر: مقال في الإنسان مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة: إحسان عبّاس، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر، دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت-لبنان، 2020م.
- برنار غوتوين: فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة: عيسى عصفور، ط1، منشورات بحر المتوسط، منشورات عويدات، بيروت-لبنان، 1982م.
- ترفيتان تردوروف: الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، ترجمة: جان ماجد جبور، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الإمارات العربية المتحدة، 1430هـ/2009م.
- تمارا دلوکج: افتتاحات فلسفة التنوير دينس ديدرو، ترجمة: عماد نبيل، ط1، دار الفارابي، بيروت-لبنان، 2013م.
- جيروم بندي (تحرير): القيم إلى أين؟، ترجمة: زهيدة درويش جبور وجان جبور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، "بيت الحكمة" واليونيسكو، قرطاج-تونس، 2005م.
- جيل ليبوفتسكي: عصر الفراغ الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، ترجمة: حافظ إدوخراز، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت-لبنان، 2018م.
- حسن الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2004م.
- راينر فونك: الأنا والنحن التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة، ترجمة: حميد لشهب، ط1، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت-لبنان، 2006م.

- رضوان زيادة وكيفين جيه أوتول: صراع القيم بين الإسلام والغرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1431هـ/2010م، ص 48.
- ريتشارد تارناس: آلام العقل الغربي فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرنا إلى العالم، ترجمة: فاضل جتكر، ط1، العبيكان، المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، الإمارات العربية المتحدة، 1431هـ/2010م.
- ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، العبيكان، المملكة العربية السعودية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1430هـ/2009م.
- سلطان بن عبد الرحمن العميري: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ج2، ط2، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية، 1439هـ/2018م.
- سيد حسين نصر: الإسلام ووعاء الإنسان الغربي الحديث، ترجمة: عمر نورالدين، ط1، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م.
- سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد الطاهر الميساوي، ط1، المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، كوالالمبور-ماليزيا، 1430هـ/2000م.
- سيلفي توسيغ (إشراف): شارل تايلور الدين والعلمانية، ترجمة: محمد أحمد صبح، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، 1437هـ/2016م.
- عبد الوهاب المسيري: العلمانية والحداثة والعولمة، (حوارات)، تحرير: سوزان حربي، ط1، دار الفكر دمشق، 1430هـ/2009م.
- كارل بوبر: بحثا عن عالم أفضل، ترجمة: أحمد مستجير، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
- ليون بوليلكوف: الأسطورة الآرية، منشورات كالمان ليفي، باريس، 1971، ص 223. نقلا عن: فرانسوا منصور مرشو: مقدمات الاستتباع الشرق موجود بغير لا بذاته، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، 1416هـ/1996م.
- نبال فرغسون: الحضارة كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟ ترجمة: سعيد محمد الحسنية، ط3، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت-لبنان، 2019م.
- يورغن هابرماس وآخرون: قوة الدين في المجال العام، ترجمة: فلاح رحيم (تحرير: إدوارد منديتا-جوناتان فانانثويرين) ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 2013م.

ثانيا: باللغة الأجنبية

- Claude Levi Strauss, Race et Histoire, Paris, Edition, Garthier, 1961
- Les Textes de Renan par J.Gaulmier; Judaïsme et Christianisme ,Copernic, Paris, 1977.
- Philippe Nemo: Qu' est-ce que L'occident? Presses Universitaires de France, 2004.